١

الضائع

مجموعة قصصية

منال المرزوقي

دار المحرر الأدبي

٢

مدينةُ الصّمت

كان يجلس تحت قدميها عارياً، على حافّة السرير، تلتمع قطراتٌ من عرقٍ على صدره وكتفيه، رغم الإضاءة الخفيفة التي تشعّ من ضوءٍ جانبيّ في الغرفة العابقة عطراً ساحراً، قال بعد تردد ولهاث: وجدت...أقصد لم أجد.. قال العبارة التي انتظرتها منذ سنوات وتوقّعتها بنفس البرودة والجفاف والاتهام والسؤال، كانت تسمعها في عقلها وقلبها وروحها ودمها، في عرضٍ مستمرٍ لا ينقطع حتى خلال نومها، والآن تسمعها تتردّد في صمت الجدران الأربعة...

سنواتٌ ستّ، مرّت على الحادثة التي أفقدتها الشيء الذي لم يجده هذا الرجل القابع في لجّةٍ من الذهول والقلق، والسؤال المعلّق في فراغ الغرفة الدافئة. شرع في ارتداء ملابسه وأشعل سيجارةً التقطها من العلبة المجاورة لها، وحين مدّ يده لتناول العلبة لمس كتفها العاري البارد، فَجَفل كأنّه قد ارتطم بجلدِ ثعبانٍ ناعم. تذكّرت المرات الكثيرة التي كان يتعمّد الاصطدام بها أو الاحتكاك بجسدها خلال زياراته لها في فترة الخطوبة القصيرة، كان شاباً جامعياً تخرّج لتوّه من إحدى الدول الأجنبية، وعاد بشهادةٍ لا تعرف كُنهها، ولكنّها فتحت له باب بيتها ليتقدّم ويخطبها، تسمع كثيراً عن الحرية في تلك البلاد البعيدة، وهي متأكدة أنها ليست أول امرأةٍ يعتلي جسدها، مهما حاول الادّعاء والتظاهر بذلك. كانت تؤمن أنه لا يمكن أن يكون قد سافر إلى بلاد الحرية وبقى ناسكاً

زاهداً، حاول التظاهر بذلك أمام والدها وأخويها اللذين يكبرانها، والذين كانوا يمانعون بشدّة خروجهما بمفردهما، أو حتى الجلوس في غرفة الضيوف العابقة برائحة كراسي الخيزران، والباب نصف موارب، وقد ألمح له والدها كثيراً أنه لا يرحّب بزيارته لهم، وهو غير متواجدٍ في البيت، رغم وجود أمها... تعللت أمّها أمامها بأسبابٍ كثيرة منها قولها: يا بنتي لازم تظلّي غالية وعزيزة إلى ليلة الزّفاف، كانت أمّها تصوّر لها جسدها بالكنز الثمين، الذي عثر عليه منقّب أجنبيّ في صحراء عربيّة، ويريد تهريبه وعرضه في بلاده أمام الأجانب، ليبهر عيونهم، ويدير عقولهم بالثروات العربية التي طالما سخروا منها وقلّلوا من قيمتها، وهو قد اختار الزواج بها، والعودة إلى البلاد التي حصل منها على شهادته الجامعية الأولى ليكمل دراسته العليا.

قال لها: لن أفتتح جسدك إلا في شقّتي التي تطلّ على أجمل مناظر أوروبا، ربما كان يريد أن يشعر بمتعة كنزه في بلادٍ خالية من الكنوز، مفتوحة الأبواب لكلّ قدم، ومشرعة النوافذ لكلّ عين، هل اعتبرها كنزاً وهو يقدّمها لجارته العجوز التي حيّتها بإيماءةٍ ونظرةٍ استطلاعية طويلة؟! كان قد بدأ في نفث دخان سيجارته في الغرفة، حين بدأت بنثر ذكرياتها أيضاً.. ساحة مدرستها الإعدادية، واللعب حتى وقت متأخر من انتهاء الدوام..."واحد..اتنين.. تلاتة"، تلعب هي وزميلاتها لعبة الاستغمّاية، ونطّ الحبل، والحجلة، والحُجّة الجاهزة لتأخّرها كلّ يوم: كان عندنا حصّة إضافي يا

أمي...وكان يوماً قرّرت فيه هي وزميلاتها لعب الحجل، وعهدت إليها الزميلات بالبحث عن حجرٍ صغيرٍ مصقولٍ ينفع ليتقاذفنه بأقدامهنّ دون أن يخدش أحذيتهنّ السوداء اللامعة رغم عدم جدّتها. شرعت تبحث في ساحة المدرسة الخلفية عن حجرٍ مناسبٍ دون جدوى، وكان السور الخلفي للمدرسة التابعة للأونروا مُهدّماً، فقرّرت أن تجتازه إلى بستانٍ صغيرٍ كثيف الأشجار، فربما عثرت على بُغيتها. بقلبٍ واجفٍ دلفت إلى البستان، ولكنّها وَأَدت خوفها أمام رغبتها بالظهور بحُسن الانتقاء أمام زميلاتها المنتظرات لبدء اللعبة، وسوف تشترط عليهنّ أن تلعب الشوط الأول... البحث السريع بعيونٍ خائفةٍ ومتلهّفةٍ أوقعها على منظر شابٍ يدير ظهره لها، عرفت من وقفته أنّه يقضي حاجته، جفلت وتعثّرت بغصن شجرة جافّ، وجفل هو أيضاً حين رآها، ولكنّه سريعاً استعاد سيطرته على نفسه ونفض ذراعيه وأسرع يلتقطها، لا تعرف كيف أصبحت بين يديه، كما كان يفعل بعضوه وهو يفرغ مثانته، ولكنّها أصبحت تحته بلا حراك، وبلا صراخ، وبلا دهشة، لأنّ الألم السريع حلّ محلّ كلّ هذه المشاعر..الجزء الأسفل العاري لشابٍ منكوش الشعر، يبدو كمتسوّل، أنفاسه الكريهة، والتي تُذكّرها بالقطط الميّتة على جانب طريقها الصباحي للمدرسة، ذلك الألم في جزء من جسدها كان مفاجئاً، ولكنّه - بعد أن رفع جسده عنها، وبدأ في جمع ثيابه الداخلية، وقميصه الخارجي المهترئ داخل بنطاله - أصبح شديداً مع لزوجةٍ استشعرتها تسيل على فخذيها، تلمّست السائل اللزج الدافئ

بيدها المرتجفة، وأدركت أنها يجب أن تبكي، لا يجب أن تصمت، لا يجب أن تخبر أمها، لا لن تخبر أحداً..

كان الشاب قد اختفى عن ناظرها وهي تستجمع قواها لتنهض، تأكّدت أن لا شيء يبدو على مريول المدرسة سوى بعض الطين الجافّ، سارت بخطىً واهنةٍ إلى حيث تركت زميلاتها ولكنها لم تجد أيّهن، أيقنت أنّهن قد يئسن من عودتها وغادرن إلى بيوتهنّ، حمدت الله أنها لم تجدهن، فهي في حالةٍ لا تسمح لها بالدخول في مهاتراتهن، أو هي أصبحت إنسانةً أخرى لا تصلح للعب الحجلة معهنّ، دلفت إلى بيتها وكانت أمّها مشغولةً في المطبخ، فتسلّلت إلى غرفتها، وألقت بحقيبتها على السرير، واندسّت في فراشها، كانت تحاول أن ترتّب أفكارها، أو تقنع نفسها أنّ كلّ ما حدث كان كابوساً أو أنه لم يحدث أصلاً، ولكنّ بقايا الألم لا زالت تؤكّد الحقيقة، وحين نادتها أمها، التي شعرت بوجودها، إلى تناولٍ الطعام هممت بعبارةٍ غير مفهومةٍ على غرار: لا.. أجد.. شهيةً.. للطعامّ.

الأيام التالية حملت لها الكثير من الصمت والانطواء والعزوف عن الزّاد، وشاءت الأقدار أن يزورها زائر النساء الشهريّ، لأوّل مرّة، بعد هذه الحادثة بأيّام، فوجدت أمّها التفسير المنطقي، الذي استراحت له، لتصرّفاتها غير الطبيعية في الأيام الماضية، وقد اعتقدت هي بالفعل، أنّ ما حدث لم يُفقدها شهادة عُذريّتها، وربما كان مقدمةً لزائر كلّ شهر، الذي تسمع من زميلاتها، بالكثير من الفخر والخجل

المُصطنع، عن تقطّعه وعدم انتظامه في زياراته الأولى لأجسادهن.

أقنعت نفسها بما تُحاول أن تقنعها به من كلّ المبرّرات التي قذفت بما حدث في السرداب الخلفي من ذاكرتها، ولكنّه لم يغادر شاشة عرض أحلامها الليليّة، لسنواتٍ قادمة، ولم يلبث أن عاد يحتل الشرفة العلويّة من ذاكرتها، بمُجرّد أن تقدّم لها هذا العريس، كلّ شيء عاد كأنّما قد حدث منذ لحظات، حتّى رائحة أنفاس الشاب الكريهة، ولكنّ العريس المتمدّن والمتحضّر بعث في قلبها الأمل، ربّما هو من الطراز الذي لا يهتمّ بهذه الأمور ويعتبرها نوعاً من التخلّف والرجعيّة...ولكن ما بدر منه الآن يدلّل على أنه ليس كما توقّعت، فليس لأنه في دوله غربية يكون من داخله ليس أبويّاً ذكوريّاً.

كان قد انتهى من ارتداء ثيابه، وأكمل سيجارته في الشّرفة التي تطلّ على المدينة الضبابية، انقطع حبل الحديث بينهما في الأيام التالية، ولم يحاول أن يتحدّث معها، وبدا كأنّه قد اشترى بطيخةً كبيرةً وفتحها بسكينه، وإذا بها فجّة صفراء، فهو حائرٌ بين أمله الخائب فيها، ورغبته في إلقائها في سلّة المهملات، أو الاحتفاظ بها على طاولة المطبخ، وبجوارها السّكين، علّه يتدبّر أمرها..

توقّعت أن يقترح عليها اصطحابها إلى طبيبة قد تُلقي أمام عينيه احتمالاتٍ تزيح بعضاً من الشك أو تضع بعضاً من الثقة، لقد قرأت خلسة في مجلةٍ طبيةٍ عن أنواعٍ كثيرةٍ من ختم عذرية الفتاة، وزوجها مثقّف، فلم لم يخطر على باله أن يكون ختم

٧

عذريتها من أحد الأنواع النادرة.. قالت لنفسها وهي تراه يراقبها أمام المرآة بصورة خلفيّة، غالباً ما تكون قبيحة وبعيدة، هو أجبن من أن يفكّر بهذا الأمر، تمنّت لو قتلت نفسها بأن تُلقي بجسدها من الشّرفة أو تقطع وريدها بشفراتِ حلاقته المتناثرةِ قرب حوض الحمّام، ولكنّها أيضاً أجبن منه في مثل هذه القرارات، وربما فكّرت في العار الذي سيلحق بعائلتها التي ودّعتها إلى الحدود الأردنية قبل سفرها، وعيونهم كلّها ثقة ونشوة بكنزهم الثمين، الذي منحوه لهذا العائد إلى بلاد الضباب، تمنّت لو يتكلم....يناقش....يسأل، ربما وجدت ما تبرئ به نفسها؟! ولكنّه صامت كقبر، جامد الملامح كصخر، وهذا هو الموت البطيء بالنسبة إليها، أشد إيلاماً من شرفةٍ شاهقةٍ أو موس حادٍ...حتّى هي أصيبت بعدوى الخرس منه، فأصبحت لا تجد ما تقوله....

شهورٌ مرّت وهي في بيته تحادث الأثاث والفراغ، وصورتها التي تزداد شحوباً في المرآة، حتى عاد ذات مساءٍ وأخرج من جيبه مجموعةً من الأوراق، عرفت من خلالها أوراقاً مالية، وتذكرة سفر، تذكرة سفر تحمل نفس شعار شركة الطيران التي أخرجها ذات مساء من جيبه أمام والدها الذي اتسعت عيناه انبهاراً وهو يرمقها تتمدّد بثقة على الطاولة الخيزرانية.

في الصباح الباكر كانت تجمع ثيابها في حقيبةٍ وترتدي بقيّتها على جسدها البارد كجثّة، ولم تنسَ أن تعبّ في صدرها الكثير من هواء الشقّة الصغيرة التي حلمت يوماً أن يمرح بها طفلٌ لها يتحدث الإنجليزية أفضل منها، وتتفاخر بحديثه أمام

٨

أمّها التي لا تعرف من الدنيا إلا بيتها ومطبخها..اصطحبها بسيارته إلى المطار، وأجلسها في قاعة الانتظار، دون كلمةٍ واحدة، ولم يحاول حتّى النظر إليها، ولكنه فقط، تأكّد من أوراقها وعملاتها الورقية القليلة. لو ينظر إليها، هكذا تمنّت، ولكنّه أطرق في أرض المطار اللامعة طويلاً، ثم استدار مُغادراً، وكأنّ كلّ شياطين الأرض تطارده..

حين ارتفعت بها الطائرة بجسمها المعدنيّ، لم تشعر هذه اللحظة بألمٍ ولا حسرة، لكن من بعيد رأت المدينة الضبابية لا تختلف بناطحات سحابها عن مدينتها الصغيرة التي رأتها كثيراً من فوق سطح جيرانهم الذي يعدّ بطوابقه الأربعة أعلى مبنىً في حارتهم، لم تشعر بفارقٍ كبير، وخُيّل إليها أنها ترى حبل غسيل أمّها وأولاد حارتها يلهون في الحارة، وحتى سور مدرستها المهدم، رأته من نافذة الطائرة.....

٩

أحلامٌ مشروعة

ألقت بجسدها وحقيبتها الجلدية متآكلة الأطراف على المقعد الخلفي للسيارة وهمست للسائق بصوتها المرتجف برداً ونصباً: حيّ الأمل لو سمحت.

كان الجو خارج السيارة ماطراً بارداً، وهي تريد الوصول إلى البيت بأقصى سرعة لتلحق ببعض الدفء الذي ينثره موقد الحطب الموضوع في وسط صالة البيت الصغيرة...كان أبوها يصرّ على استخدام الحطب على أنه أفضل وسيلة تدفئة، رغم الأزمات الربوية المتلاحقة التي تداهم صدره، وتجعله يسعل كالعواء، ولكن الأزمات الربوية أرحم بكثير في نظره من فاتورة الكهرباء، التي تصلهم نهاية كل شهر، والتي تزيد الأزمة الربوية احتقاناً، وترفع ضغط دم أمها. سخرت بداخلها، فهُم أصلاً لا يملكون مدفأة كهربائية، وطالما تمنّت لو ابتاعت واحدةً ووضعتها في مواجهة أبيها القابع بلا عمل طوال الوقت..

ركوبها سيارة أجرة يعتبر مغامرةً، وربما أنّبتها أمّها لأنها فعلت ذلك، فهي لا تملك إلا شيكلاً واحداً تدحرجه في أقصى بطانة حقيبتها، حتى لا تخطئ يوماً وتخرجه أثناء بحثها عن شيء آخر من متعلقاتها البسيطة.. كانت تطلق على هذا الشيكل شعرة معاوية.. فهو لا يجعلها فقيرةً معدمةً، ولا غنية مُترفة...لأنها تملك شيكلاً فحسب!

وها هي الآن تمدّ يدها به إلى السائق.. كيف لم تنظر إلى السائق في عجلة ركوبها.. كان شاباً وسيماً، وربما يصغرها

بأعوام.. له لحية صغيرة نامية كإبر قصيرة.. وشعر رأسه ناعم غزير.. طريقة إمساكه بالمقود تدلّ على أنه يتمتّع بصحة جيّدة.. لو كان مُترفاً لما عمل سائقاً، ولكنه بالتأكيد، يهتمّ بصحّته، حتى يظلّ مربوطاً إلى المقود أطول فترة ممكنة.. نظرت إلى المرآة الأمامية في وسط السيارة.. تمنّت لو نظر إليها.. تعرف أنها ليست جميلة.. حتى اسمها الذي ينحدر من أصولٍ تركية، لم يمنحها، حين التصق بها، أيّ مسحة من الجمال.. كانت فتاة عادية، لم تلبث أن مرت بها السنون وأصبحت في بداية عقدها الرابع دون زواج..وضعت يدها لا إرادياً على المنطقة المحيطة بفمها.. هناك تقشرٌ واضحٌ فيها، ربما من سوء تغذيتها، تخفيه بطبقة سميكة من البودرة الرخيصة. قبل عدة أشهر اشترت علبة بودرة بعشرة شواكل من بائع جائل على عربة، ولم تنس حتى الآن نظرته إليها وهي تدسّ العلبة بلهفة في حقيبتها، متخيّلةً أن مسحةً منها سوف تحوّلها إلى فينوس الساحرة. كان لسان حال البائع يقول: وهل يُصلح العطار ما أفسده الدهر، تذكّرت ابنة صاحب مصنع الخياطة الذي تعمل فيه، كانت جميلةً جمالاً صارخاً، وتُبرز جمالها وجسدها بطريقة مفتعلة.. وتطرب لعبارات الغزل التي يُمطرها بها الرجال الذين يفدون إلى مصنع أبيها..

صاحب المصنع، ورغم أنه في سنّ والدها، لا يتردّد عن التّحرّش بها، ولمس يدها أو الاحتكاك بمؤخرتها، عند مروره بالقرب من ماكنة الخياطة التي تجلس إليها لمدة عشر ساعات يومياً.. كانت تتقاضى مبلغاً لا يتجاوز الثلاثمائة شيكل، إلا

في الأعياد، فكان يمنحها صاحب المصنع عيديّةً صغيرةً تفرح بها هي وأُمّها، أمها التي تدس راتبها في صدرها، ثم يلهج لسانها بالدعاء لها كثيراً، وهي تعدّل من وضع حمّالة صدرها المتدليّة من فوق ملابسها.. حتى تتأكّد أن المبلغ قد التصق بلحم صدرها الغارق بالعرق والدفء.. هذا الراتب الصغير، هو النّواة التي تسند الزير، لأنّ والدها بلا عمل، وهي أكبر إخوتها السبعة، والبيت كلّه مفتوح من حسنات وصدقات الجيران والأقارب، أما راتبها فهو الذي يكفي العائلة ذلّ انتظار زكاة متأخّرة، أو صدقة ذهبت إلى شخص آخر عمداً أو سهواً.. وجنتاها تكسوهما طبقةٌ من البقع البنيّة الداكنة، وحين سألت جارتها الطبيبة، وهي في عجلةٍ من أمرها، وتهمّ لركوب سيارتها، أجابتها: لأنك تسيرين كثيراً تحت أشعة الشمس. والتقطت من على "تابلو" السيارة ورقةً صغيرةً وقلماً ذهبياً لتدوّن لها اسم كريمٍ للوقاية من الشمس. لا زالت تحتفظ في قاع حقيبتها بالورقة التي تشرّبت بزيت الفلافل، لم تفكّر أن تسأل في الصيدلية مجرد سؤال عن ثمن هذا الواقي. يوم أن اشترت علبة البودرة والتي لا تُسرف كثيراً في استخدامها سمعت الكثير من التقريع من والديها وكأنّها ضُبطت في لقاء عابر مع ابن الجيران...لم يكن هناك حقاً ابن جيران فكّر يوماً بمغازلتها.. رضيت بنصيبها وهي تترك المدرسة في المرحلة الإعدادية وتلتحق بالمصنع وتقطع كل يوم المسافة بينه وبين بيتها في ساعة للرواح وأخرى للغدو.. أفاقت من شرودها قليلاً على صوت السائق وهو يسألها: أي شارع تريدين؟

١٢

ردّت بصوت حاولت أن تكسبه بعض الرقّة والنعومة: الشارع الثاني. لو سمحت.. ليست من هؤلاء الفتيات اللواتي يُجدن تسويق أجسادهن بافتعال واضح وصريح، وفي النهاية لا يظفرن بزوج، ولكن بسوء السمعة لا أكثر.. تخيّلت لو أوقف هذا السائق الوسيم السيارة والتف بجسده من مقعده الأمامي وقبّلها.. لو فعل والتفت حقاً للمرآة الأمامية للسيارة بصورة تجعله قادراً على استراق النظر إلى أكبر قدر من تفاصيلها.. الجورب الذي يلتفّ حول ساقيها مجعّد بالٍ.. وحذاؤها بكعب ذائب.. ولو اقترب أكثر سيرى الثقب الذي فشلت أمّها في رتقه في ياقة القميص الكحلي الذي ترتديه.. سحبت التنورة بكلتيّ يديها إلى أسفل لتخفي الجورب البادي كلقمة لاكتها أضراس عريضة.. التنورة كانت سوداء. لا تذكر من أي كومة بالة اشترتها ولكن كان ذلك من زمن بعيد.. ولا تغيّرها إطلاقاً، فقط تغيّر البلوزات والقمصان بما يتلاءم مع اللون الأسود للتنورة.. ماذا لو استدار وقبّلها؟! حين يقترب منها لن يشمّ رائحة عطر من تحت إبطها، أمّها طالما نصحتها أن تستخدم قشرة الليمون بعد عصرها في مسح منطقة إبطها حتى لا تنبعث رائحة عفنة منه، وأمها تحتفظ على حافة حوض المطبخ بعدة أنصاف لليمونات سبق عصرها لهذا الغرض، تمنّت لو أنها تستخدم عطراً من تلك العطور التي تصطف في واجهات المحلات، تسمع كثيراً من زميلاتها في المصنع واللواتي يتندّرن في أثناء العمل بتأثير العطر على الرجال، زميلاتها هنّ على شاكلتها ممّن فاتهنّ سن الزواج، أو مُطلّقات لم يحظين بالزواج إلا لفترة

قصيرة.. أمّها لا تتوقّف عن الدعاء لها بالستر، وتطلب من قريبتها العجوز البحث عن عريس مناسب لها، وتردف أمها قائلةً للقريبة العجوز التي تقلّب نظرها في وجهها غير مقتنعة بجدوى البحث: أيّ زوج يسترها لا يهمّ السن، والمهم أن يكون ميسور الحال. أمها لا تقتنع أنها تحيا كراهبة. لم يلمسها شاب ممن يعملون في المصانع المجاورة لمصنعها.. لم تحظَ بقبلةٍ أو عناقٍ سريع.. أبداً ذلك لم يحدث.. ترى كيف ستكون رائحة جسده لو دنا منها؟! هل ستنبعث من أنفاسه رائحة سجائر خانقة.. هل أسنانه صفراء يهمل تنظيفها، إن أسنانها بيضاء ناصعة فقط تتمضمض بالماء وتفركها جيداً بالملح حيث تستخدم سبّابتها كفرشاة أسنان والنتيجة كما ترى في مرآتها المشروخة أكثر من رائعة.. نظرات والديها لها لا تخلو من شفقة.. زواجها لو حصل سيقطع بهم.. ولكن أبداً لا تتوقف أمها عن اللهج بالدعاء..

تخيّلته يتجرّأ أكثر والشوارع تغتسل بالأمطار والناس ينكمشون في بيوتهم، يستدير من مقعده ويعانقها عناقاً قصيراً.. أو حتى طويلاً، ويدسّ يده بين فراغ زرّي قميصها، فتصل إلى حلمة صدرها النافرة...أوشكت أن تطلق أنيناً ممزوجاً بنشوة.. حين صمّ أذنيها صرير عجلات السيارة على الأرض المرطبة بالمطر.. قال: لقد وصلنا.

كانت الراكبة الوحيدة معه.. نزلت من السيارة وسحبت حقيبتها من على الكرسي، وألقت نظرةً أخيرة إلى وجهه الوسيم.. نظرة أخيرة إلى السماء التي تحشد عواصف قادمة، ثم

غيّبتها طرقات حارتها الضيّقة المظلمة، غيّبتها وهي تبتلع في حلقها، دموعاً عميقة ساخنة، فرّت من مقلتيها..

١٥

فأر وامرأة ورجل

الشمس كانت لا تزال في الدقائق الأخيرة من حوارها مع نفسها، وهي تستعدّ لمغادرة خدرها، حيرتها التي تواجهها كل يوم في نفس الوقت.. يجب أن تشرق كما هي إرادة رب العباد، ولكنها تشفق على نفسها ونورها وخيرها أن يعمّ على هذا الكون الزاخر الطافح بالشرور والآثام..نفس الصراع تعيشه الشمس الأزلية.. نفس الحيرة.. ولكن في ذلك الفجر كانت هناك نفس بشرية تعاني صراعاً أكبر، عذاباً وألماً، حيرة بين النار والنار...

تعتدل في سريرها الخشبي المتآكل، ثلاثون عاماً مرت على هذا السرير في نفس الركن من البيت الفقير الحقير، متصدع الجدران والذي لم تمتدّ له يدٌ لإصلاحه، فأصبح في حالةٍ من السوء لا يحتاج فيها إلى قرار إزالة ليزول عن وجه الأرض. أطلّ عليها رأس فأر مذعور من إحدى زوايا الغرفة، لم تكترث به، فقد اعتادت على طلّته، ولم تفكّر في إخبار زوجها الذي يغطّ بنومه خلفها، على الجانب الآخر من السرير.. لم تفكّر بإخباره عن الفأر، رغم أنه قد نبّه عليها عدّة مرات، أن تُعلمه إن لمحت فأراً في البيت، فهو يصنع هذه الأيام أفخاخاً صغيرة بدائيّة لصيد الفئران، والعصافير أيضاً، ويريد تجربه كفاءتها قبل أن يحاول عرضها على رفاقه الذين هم من عيّنته، فاقدي أعمالهم داخل إسرائيل، والمنتظرين لمجهولٍ قد لا يجيء، سخرت لأولّ مرّة هذا الصباح، بداخلها، وهي تفسّر اهتمام زوجها بالفئران

وكأنه يقول لها: أنا موجود في البيت..لازال لي دورٌ فيه.. زوجها يكبرها بأكثر من أربعة عشر عاماً فهي قد تزوجت في الرابعة عشرة من عمرها عندما لم يكن أمامها شيء تفعله أمام فقر عائلتها الكبيرة، ورغبة والدها بإزاحة فمها المفتوح من أمام ناظريه، ليلتفت لبقية الأفواه المشرعة، كانت جميلة جداً بصورة جعلت الجميع يتسابقون على الظفر بها ومحاولة خطبتها في هذه السن الصغيرة، وتزوجت وهي تعرف أنها لا تملك إلا جمالها الذي ساقها إلى بيت هذا الرجل الذي كان يحصل على راتب مرتفع جراء عمله في إسرائيل، قبل أن يتحوّل القطاع إلى سجن مغلق، ليجد نفسه فيما بعد صفر اليدين، لا فوقه ولا تحته، نتيجة انغماسه في الملذات وإهدار ما تبقّى لديه من مال هنا وهناك. وفي السنوات التالية لم يكن أمامها إلا أن تكون وعاءً لإنجاب أكبر عدد من الأطفال لهذا الرجل أيضاً الذي يعتبر الذريّة عزوة، ولو لم يملك لهم قوت يومهم، أو لم يجدوا مكاناً يستقبل أجسادهم في البرد لياموا ويتدثروا...

جميلة.. جميلة.. كثيراً ما سمعت هذه الكلمة ورأت آثارها على وجوه كل من صادفت، حتى بعد مرور السنوات الطويلة على زواجها وتجاوزها عامها الأربعين، في كل مكان وفي كل وجه كانت تقرأ وتسعد وتشقى بهذه المعلومة التي لم تقدم لها شيئاً، قابلت في أحد الأيام إحدى جاراتها القديمات، كانت دميمةً كما تجب الدمامة، ولكنها أصبحت طبيبةً لها عيادة تعجّ بالمرضى، وتربض أمام بابها سيارة فاخرة تقودها هي، وبالتأكيد تقود حياتها كما تفعل بسيارتها.. تنهّدت بصوت

مسموع، ومطّت شفتيها، وسخرت بداخلها سخريةً آلمت قلبها، وهي تنظر للمرة الثانية إلى زوجها.. ربما هو الوحيد الذي لم يقُل لها يوماً إنها جميلة! وربّما لا يجد فائدةً تُرجى من قوله، فهو لن يستطيع أن يهديها مثلاً عقداً ثميناً يتيه على صدرها ناصع البياض، ولن يشتري لها أيضاً قميص حرير للنوم.. لملمت ثيابها وهي تتذكّر ملابسها الداخلية البالية، القطعة الداخلية التي ترتديها تحت الجلابية أصبحت منسولة الجوانب، وممزّقة الذيل، وفي داخلها تخجل أن تضطجع بها أمام زوجها، وهو موشك على عناقها، قبل أن يعتلي جسدها، ويغيب بين لُجج بياضه، كسفينة تغرق في أعماق المحيط.. حتى لو رأى القميص المهترئ..أطل شبح ابتسامة على وجهها، ماذا سيحدث ؟هذه الأمور لا تهمّه بقدر اهتمامه بأن يعبّ من جمالها وأنوثتها وشبابها.

أيّ شباب بقي لها؟! وهي قد تجاوزت عامها الأربعين بعامين ولكن.. قدّها لا زال ممشوقاً، وصدرها مشدوداً، وبياضها وحمرة وجنتيها تشعلان وجهها ذا الملامح الطفولية، وتحذفان من عمرها عشر سنوات على الأقل.. تفكيرها البسيط يدفعها إلى السخرية الداخلية المريرة، والتي تترجمها على وجهها بالكثير من اللامبالاة، أو الإعراض عن زوجها وهو يجعل جسدها همّه الثاني بعد صنع الأفخاخ التي لم يُجرّب نجاعتها بعد. تزوّجت ثلاثٌ من بناتها ليتكرر نفس السيناريو الذي حدث معها، لم تحظ أيٌّ منهن بزوج ثريّ، يعوّضها عن الفقر الذي

عاشته في بيت والدها..كتمت حسرتها في قلبها وهي تتمنى لو استطاعت استثمار جمال بناتها وتفشل..

ندت من زوجها وصلة شخير عالية، سرعان ما خمدت، وحرّك شفتيه كأنّه يلوك طعاماً.. شعرت نحوه بالحقد الشديد، فهو لا يحمل همّاً لأعباء البيت، ويكتفي بما تحصل عليه من زياراتها للمؤسسات والجمعيات الخيرية، ولا يُلقي أذناً صاغية لشكواها من تحرّشات الموظفين، وحتى العتّالين الذين يحملون لها المعونات الغذائية على عرباتهم، وأصبحت لا تشكو له، بل وتجد المتعة في سماع عبارات الغزل الصريحة والطامعة والسريعة.

وحده جارهم الرجل الستّيني الذي يملك محلاً لبيع المواد الغذائية المجمّدة، هو الذي يترك كلامه أثراً في أذنيها، ويظلّ يدوّي فيهما كما تفعل نحلة مشاكسة، تبحث عن زهرة بين ضلوع الصبّار لتمتصّ رحيقها.

جارها لم يفقد الأمل أنها سوف تستجيب لغزله المنمّق، وتلميحاته الكثيرة بأنه سيفتح لها حساباً جارياً في دكانه، فتستطيع أن تأخذ منه كلّ ما تحتاج من مواد مثلّجة، والحساب كما يقول ليوم الحساب.. كثيراً ما اشترت منه كيلو من اللحم المجمّد الذي يعيد تجميده عدّة مرّات، ويفصل عنه الكهرباء كثيراً فيذوب عنه الثلج، ليوفّر في فاتورة الكهرباء فيتغيّر طعمه وحتى شكله، ولكن ما باليد حيلة، شيء أفضل من لا شيء.

سرح خيالها في المرات الكثيرة التي أعطاها كمية من اللحم والبازيلاء المجمّدة دون مقابل، وهي تعرف أنها تكون على وشك أن تفسد ولكنها تأخذها منه متلهّفة وممتنّة، تذكّرت عرضه وهو يردف ويحاول أن يلمس وجنتها المتوردتين: بس لو تعطف يا جميل.. كانت تتمنى لو أفصح عن مقدار العطف الذي يريده مقابل كميات كبيرة من بضاعته، حتى طفح بها الكيل أو طفح به الانتظار، وصارحها وصارحته: قُلْ من الآخر ماذا تريد مني؟ فردّ وهو يغمز لها بعينه ويحاول أن يتبسّط معها أكثر بوضع يده المتّسخة بالدهون والدماء على صدرها، لم يبدُ أنه قد أخطأ بلمس صدرها كما كان يدّعي في المرات السابقة.. وعندما غادرت محلّه في هذه المرة، كانا قد اتفقا على اللقاء في المخزن الخلفي لمحله، كلّ ما عليها أن تأتي بالصباح الباكر قبل أن ينتبه أحد الجيران وتدلف من الباب الخشبي الصغير الذي سيتركه لها مواربا..

حدّثت نفسها وهي تنهض من فراشها وتعدّل ملابسها وتضع غطاء رأسها.. ما الفارق بين أن يضاجعها زوجها وأن يفعل هذا الرجل، هزّت رأسها بعنف وهي تعدّل من "ايشاربها" ممزق الأطراف.. على الأقل هو سيمنحها كيساً كبيراً من المواد الغذائية التي ستكفي أولادها لأسبوع على الأقل.. أما زوجها الذي يلتهم كل الصدقات والحسنات التي تصلها وفوقها عمرها وجسدها، فهو لم يفكّر يوماً ما أن يمنحها أي مقابل وكثيراً ما وبّخها وشتمها بعد أن يرفع جسده الثقيل الغارق في العرق عن جسدها، ويكون قد تذكّر عدة شواكل قد

أنفقتها دون إذنه.. هناك فرق أو سيصبح هناك فرق.. سخرت لمرة جديدة لم تعرف ترتيبها منذ استيقظت وتسللت من البيت تاركةً زوجها يلوك أحلامه أو يلوكها في أحلامه...

تمنّت ألا يراها شقيق زوجها في المنزل المجاور، حيث يملك سيارة نقل ضخمة ينقل عليها الخضار والفواكه بالجملة ويبخل على أطفالها ببعض الفاكهة العطنة، لم تدع الله هذه المرة وهي تخرج من البيت كما تفعل دائماً أملاً في معونة سريعة تصرف لها دون انتظار قاتل في طابور طويل.. خجلها أمام الله كان كبيراً ولكن اختناق عبراتها المحتاجة لكيس من المعونات دفعت بالكثير من المبررات إلى خطواتها التي بدأت سباقاً محموماً مع دقّات قلبها.

كانت تتقدم من المخزن الخلفي كثيراً ويدها تقبض على الكيس البلاستيكي الأسود الذي اقترضته من زوجة شقيق زوجها وهي تبدي الكثير من الامتعاض.. تساءلت ماذا لو رأى قميص نومها الممزّق المنسول تحت جلابيتها؟ كيف سيكون وقع جسده على جسدها؟ رائحة جسمه.. هل ستشم ذات الرائحة التي تنبعث من يديه الملوثتين بالدهون المتجمدة والدماء والتي تغطي البقع البنية الداكنة على ظهر كفّيه بفعل تقدّمه في السن أو نتيجة لاعتلالات صحية ما.

حين وصلت كان هناك تزاحمٌ غير معتاد أمام المحل والباب الخارجي للبيت الذي يحتل المحل والمخزن الطابق الأرضي فيه.. أصيبت بخوف رهيب، معقول أن كل هؤلاء شهود استعدوا للجرم الذي سيحدث بعد قليل. انتزعتها عبارات على غرار:

رحمه اللّه، كان رجلاً طيباً، الموت يأتي فجأة.. انتزعتها من نوبة قلبية كانت على وشك الإصابة بها.....لقد مات الرجل صاحب المحل فجأة، مات قبل الفجر بقليل، ، ،

واصلت السير بعد أن استدارت وأفلتت يدها الكيس الأسود البلاستيكي الذي طار في هواء الفجر البارد النشط، ليستقر على الرصيف، وتأتي سيارة النقل الضخمة التي يمتلكها شقيق زوجها فتدوسه تحت عجلاتها.

نظرت قليلاً إلى الكيس الذي التصق بالرصيف المندّي.. واستمرت في سيرها وفي رأسها فكرة واحدة.. ستخبر زوجها عن الفأر الذي يطلّ عليها كل صباح من جحر في غرفتها...

٢٢

السَّراب

لقاؤها الأول به، يُشبه إلى حدٍّ كبيرٍ جلسة الكهرباء التي يتلقّاها مريضٌ بالصّرع للمرّة الأولى، يعتقد أنه سيشفى من أوّل صاعقةٍ ترجُّ أركان عقله، وسيعود إنساناً طبيعياً لا يصرع ولا يتشنّج ولا يستدرّ عطفاً ممّن حوله، واعتقدت أنها الجلسة الأولى التي سوف تمنحها الشفاء التام، التشبيه الطبّي الجافّ هذا راود خاطرها، لأنّها كانت تدلف إلى عيادة طبيب أسنان، فكّرت: ماذا لو دلفت إلى محلّ صائغ والتقته، أو إلى معرض لوحاتٍ فنّيةٍ وصادفته بجوار لوحة هو راسمها أو يتأملها، بم كانت ستصف اللقاء الأول ؟!

كان جالساً إلى مكتبه الطويل الحائر في احتواء طوله الفارع، حين نهض مُرحّباً بها، وقادها إلى كرسي الفحص، بعد تحيّةٍ مُقتضبةٍ شرحت له ما تعاني من ألمٍ في ضرسها، هزّ رأسه دون صوت، وكأنّه لا يريد إهدار طاقته في كلمة، وشرع يفحص ولا يرى منها إلا فماً مُشرعاً مُستسلماً، أما هي فكانت ترى، لدرجة لا تشعر فيها بالألم، عينيه زرقاوين، وتحيط بهما من الخارج هالاتٌ سوداءٌ مقيتة، تكاد تجزم أنه لم ينم منذ فترةٍ طويلة، شعره الذّهبيُّ مُبعثرٌ في فوضىً مُحبّبة، ويداه ترتعشان، وإن حاول أن يُمسكهما بأدواته، لا أن يمسك أدواته بهما، قليل من العرق البارد نبت على جبينه وبدأ باللهاث، كانت العيادة خاليةً إلا منهما، سألته في قلقٍ وخجلٍ عمّا به، لم يحرْ جواباً، ولكنّه حاول الاستمرار في العمل داخل

فمها، وكأنّ يده لا تتّصل بهذا الجسد الذي تتوقع أن يهوي أمامها في أية لحظة.

بعد دقائق سمعت الصوت الرتيب لهبوط الكرسي، دلالةً على انتهائه من العمل، عاد إلى مكتبه الصغير وكأنّه يلوذ به، وسألها عن اسمها ليخطّ "روشتة" العلاج، وحين ذكرت اسمها أمامه وهي تنقل بصرها بين وجهه المُتعب ويده المُرتعشة، رفع حاجبه في تهالُكٍ: إذن أنتِ أختُ فلان؟!

نعم، هزّت رأسها بطريقتها الطفولية، بعضٌ من البِشر طاف في وجهه ثم توارى سريعاً خلف ألمٍ لا يزال مُصرّاً أن يتمدّد في خلاياه، أخوك هو صديق العمر وزميل الغربة لسنوات، فرحت أنّ أحداً يُذكّرها بأخيها الحبيب وشرعت لاهثةً كطفلةٍ أيضاً، تقصّ عليه أخباره وهو يهزّ رأسه ويتأمّل وجهها الدقيق في نظراتٍ لم تُفسّرها. غادرت عيادته وهي تنتظر الموعد القادم بعد أيام قليلة، وجاء الموعد القادم مُتأخراً لأنها انتظرته بالكثير من المشاعر التي لا تعرف لها تفسيراً، ولكن يتصدّرها فضول الأنثى، التقته وكأنّها قد تركته منذ لحظة، حتى ثيابه لم يُبدّلها، وتبدو بحاجة إلى كيّ.. تحيةٌ مُقتضبةٌ ثمّ فتح الحوار فجأةً لتكرار أسئلة عن أخيها، بعد فحصه لضرسها وعودته إلى مكتبه بدأ يتحدث عن نفسه، وهي تعجب من هذا الجدول الذي شقّ سكون قارّةٍ قُطبيةٍ وجمودها، روى لها حكاية زواجه من زميلةٍ طبيبة، ومعاناته معها، ومع أنانيتها وغرورها لأنها ابنة طبيب مشهور، إهمالها له ولبيتها على حساب عملها واهتمامها بجمالها، ثم سبّبت له مرض السكر فجأةً رغم سنّه الصغير،

وأخيراً سبّبت له مشكلةً في عضلة القلب!!! تحدّثت بعد صمت، استوعبت كلّ حرفٍ انهمر في بئر حيرتها وفضولها حتى فاض وطفح..

روت له عن حياتها وكأنّها تريد أن تقول له لست وحدك من يعاني، أو كأنّ الإحساس الأول الذي داهمها في زيارتها الأولى قد عاد، جلسة كهربيّة، أم جلسة عند طبيب نفسيّ، لا فارق، المهم تريد أن تتحدث.. زوجها يهملها ويهمل مشاعرها، لا يراها إلا وعاءً لتفريغ شهوته وخادمةً لبيته، هكذا صارحها في الأيام الأولى لزواجهما والذي استمر سنواتٍ وهي كحمامةٍ في شبك صيّادٍ جائع، اصطادها وهو يعلم أنّها لن تسدّ له جوعاً، ولكنّه احتفظ بها إلى وقت يرى فيه أمامه صيداً أكبر، ولكنّ بقاءها في الشِّباك استنزف روحها وقواها، وهو لا يُلقي لها إلا فُتاتاً من خبزٍ جافّ. كلّ محاولاتها للخروج من الشّبك كانت خرقاء، لم تنل منها إلا الدماء التي لطّخت بياض ريشها الناصع.

حكت له عن أمنيتها برجلٍ يفهمها كعقلٍ وروحٍ، ولا يتفاهم معها كجسدٍ، وكآلة تفريخٍ لأطفال هم الذُّرية المُبتغاة لشرقيّته وذكوريّته، الحديث بينهما تلته أحاديث كثيرة، بحججٍ واهيةٍ كانت تسوقها لزوجها لزيارة طبيب الأسنان، وكان زوجها يُصدّقها لأنّه لم يعهد منها كذباً، أو لأنه يعرف أن لا بُدّ لها من فكاكٍ من أسره.

اشترت أكثر من كتابٍ لتقرأ عن مرضى السكر والعناية بهم، وفي كلّ زيارة كانت تقدّم له نصيحةً وتصحبُ في حقيبتها طبقاً صغيراً ممّا تُعدّ من مُعجّناتٍ لذيذة، وكان

يلتهمها بنهمٍ وإعجابٍ، وكأنّه لم يتذوّق طعاماً في حياته، أمّا هي فكانت تنظر إليه حيناً بنظرة الأمّ المُشفقة، وحيناً آخر بنظرةِ المرأةِ القويّةِ لأول مرة، أمام رجلٍ، فكّرت ذاتَ مرّةٍ أنه لو قرّر تقبيلها، فستكون قُبلته حتماً باهتةً مُتهالكة، قُبلات زوجها التي تجتاح رقّة شفتيها تُشبه كثيراً انفجار قنبلةٍ صغيرةٍ في سوق تملؤه ذُعراً وفوضى، ولكنّها لا توقع خسائر في الأرواح.

قُبلته التي تخيّلتها لم تتأخّر لأنّه احتضن كفّها الصغيرة بين كفّيه، وشعرت أنّ يدها لن تغادر كفّيه كما كانت، ظل مُمسكاً بيدها، وقادها لتجلس على الكُرسي المواجه لمكتبه، فجلست وهي لا ترى موضع الكرسي، إلاّ من خلال إيماءةٍ من عينيه، حين جلست إلى الكرسي كان يقترب منها بقُبلةٍ. يجتاح ضعفها وخذلانها وسكونها وصبرها بقُبلة، كما تخيّلتها وأكثر، شيءٌ بداخلها تعاظم وكبر، هناك رجل أضعف منّي، ويُقبّلني، ولم تسمع صوت انفجار القنبلة في السوق كما يحدث كل مرّة حين يُقبّلها زوجها، ولكنّها تسمع صوت ضرباتِ قلبها تتعالى، وصوت ضربات قلبه تتسارع، وكأنّ سباقاً يحدث بين ضربات قلبين وبين شفتين، لم تعرف متى انتهى السّباق، ولكنها شعرت بنفسها تنزل درج العيادة وكأنها تصعد إلى السماء وتهتف أنا ملكة، لست أمةً ولا جارية.

الزيارة الأخيرة، لم تكن تعرف أنها الأخيرة، ولكنّها أصبحت كذلك، حين منحها نفس القبلة، وحين بدأت طريقها

للعروج إلى السماء، كانت يداه تعبثان في ثيابها، وتصلان إلى لحمها، وتشعر ببرودة يديه على جسدها الدافئ، في لحظةٍ كانت عاريةً وكأنّها تستعدّ لمُضاجعة، عارية رغم أنّ ملابسها فوقها بلا أزرار مُقفلة، ولا أربطة مُعقّدة، ولا وشاح رأس، كان يتدلّى من رأسها إلى الأرض، وضعها كان يشير إلى أنها ستعود إلى كامل هيئتها بعد لحظة، وستصبح عاريةً إلا من ورقة التوت بعد لحظة.

يجب أن تهرب، وصوت القنبلة يدوّي أكثر، لا عشرات القنابل تتناثر على أرضيّة العيادة الرخاميّة اللامعة، كان قد تجرّد من ملابسه السُّفلية وهو يعرف ما يريد، زياراتها كان يخطط لها في أوقات فراغ العيادة من المرضى، ولذا ليس من المُحتمل وصول أحد يفسد عليه مُخطّطه، الهرب، لم تفكّر إلا بالهرب وهي تراه مجرداً من ثيابه، لم تره مريضاً ولا ضعيفاً ولا مُتهالكاً كأولّ مرّة، وشعرت بأنفاس زوجها تملأ المكان وتطغى على رائحة المُطهّرات والبنج التي أحبتها وألفتها، دفعته بيدها التي طالما قادتها إلى قبلته، وهربت، كانت كسيرةً ومذبوحةً أكثر مما تكون وهي تختفي تحت عباءة رجولة زوجها، تذكّرت ما قرأته في كتاب عن مرض السكر، نعم هذه حقيقة وهي كانت تكذب نفسها، مريض السكر يعاني من مشاكل جنسية تُهدّد ذكورته والتفسير العلمي كان طويلاً ولكن عقلها استوعبه وأنكره على هذا الرجل، كان يستدرجها ليثبت فحولته بعيداً عن غرور زوجته وشعوره نحوها بالعجز أو حتى الدونية، كانت له تجربة وكان بالنسبة لها

افتتاحاً لمشروع تستثمر به إنسانيتها وآدميتها، أصبحت في الشارع حيث احتضنها هواء ساعات النهار الأولى فحثّت خطاها إلى بيتها، إلى زوجها النائم في سريرها، كانت ترى أمامها شبكةً وصياداً وحمامةً خانعةً مُستسلمةً تلعقُ الدماء الجافّة عن جناحها، ولكنها في هذه اللحظة بالذات، لم تشعر إلا بالشفقة والأسى نحو الصياد..!

٢٨

العتال

التقط من تحت وسادته المتّسخة البالية، قصاصة الجريدة التي يحتفظ بها منذ زمنٍ بعيد.. ونظر إليها ملياً وتنفّس بعمقٍ مراتٍ ومراتٍ وهو ينظر إليها، ثم أعادها إلى مكانها بحرص، حتى لا يُحدث فيها تلفاً أكثر، كان يُحافظ على القُصاصة كما يُحافظ على شرفه وعرضه، ويودّعها كلّ فجرٍ قبل أن يغادر إلى عمله المُضني، كما يودّع الأمير عروسه قبل أن يغادر إلى الحرب. لا زال يذكر كيف وصلت هذه القصاصة إلى يده، فقد كان يوصل بعض البضائع إلى الجزّار، فلفت انتباهه كومة الجرائد التي يضعها على القطعة الخشبيّة الضّخمة المُلطّخة بالدماء الجافة، كان يستخدمها في لفّ اللحم الذي يبيعه لأهل الحارة، ولم يكن طبعاً ممّن يملكون ترف التفكير في أن يُصبح زبوناً عنده، يشتري بعض اللحم، ويحمله تحت إبطه، ويهرع إلى زوجته لتعدَّ له طبقاً من الفتّة أو الثريد... ولكنّه حصل على هذه القصاصة، كانت تحمل صورة امرأةٍ حسناء شبه عارية، يتدلّى ثدياها من ملابسها المُثيرة، أعجبته الصورة، وخاصّة حين أمعن النظر في شفتيها وثدييها، شعر أنّها توجّه له رسالةً سريّة غامضة، أو أنه بمجرد أن أصبحت هذه الصورة في يده، فقد أصبحت صاحبتها امرأته التي يضاجعها كلّ ليلة، بعد عناء العمل في مُجمّع توزيع المعونات الغذائية

التابع للأونروا.. ثم يودّعها بنظرةٍ طويلةٍ يتبعها بنفسٍ عميقٍ يعبّه إلى صدره وكأنّه يُقبّلها قبلة الوداع..

كان واثقاً أنّه لن يظفر في حياته بامرأةٍ مثل هذه، أو حتى بامرأةٍ مثل جارته العانس المُتصابية، والتي تقف طوال النهار أمام بيتها على مدخل الحارة، حتى بات يعتقد أنّها لا تملك بيتاً في الداخل، ولكن تملك باباً يسنده جدار، كانت لا تكفّ عن الغمز واللمز، لكلّ رجل يمُرّ من أمامها، وبالطبع، لا أحد يفكّر في الالتفات لها... دميمة إلى درجة مقزّزة، ولكنّها تكفّ عن الغمز واللمز، بمُجرّد أن يمرّ من أمامها... كان يعرف أنّها تُفضّل العنوسة ووقفتها تلك، على رَجُلٍ مثله.. وتمطّ شفتيها المائلتين إلى السواد وتشيح بوجهها، وكثيراً ما تُردّد: يا فتّاح يا عليم.. كان بودّه لو صرخ في وجهها قائلاً: حتى أنا لا أفكّر فيك...عندي امرأةٌ لا تصلحين جاريةً لها.. امرأتُه التي تحت الوسادة، والتي يغادرها في الفجر وهو حزين مُطرق.. لينغمس بغبارِ السيارات الضّخمة، والدقيق المُتطاير من الأكياس المُتلّلةِ فوقها، في عملٍ متواصلٍ لا يحصل في نهايته إلاّ على قروشٍ قليلةٍ يشتري بها بعض الطعام..

أبلغه المدير في اليوم السابق أن هناك حمولةً ضخمةً من المعونات ستصل إلى مركز التموين، وعليه بالتّبكير في الحضور.. كان يُبلغه وكأنّه سيتسلّم هذه الحمولة لنفسه، ويضع ثمنها في جيبه... ضحك بسخريةٍ وهو يعلم أنّ حمولةً ضخمةً تعني تعباً مضاعفاً ومجادلاتٍ ونقاشاتٍ مُملّة، وبلا طائلٍ مع النساء اللواتي يَفِدنَ من الفجر إلى المركز لتسلّم

مُخصّصاتهنّ، وأحياناً يجدُهنّ قد سبقنه في الوصول، ينظر إليهنّ وهنّ في زحامٍ قاتلٍ للوصول إلى شبّاك تسلّم البطاقات، هذه تسقط على الأرض فتتكشف ساقها، وتلك ينزاح غطاء رأسها فيبرز شعرها.. قليلاتٌ هنّ النساء اللواتي يملكن بعض الجمال، مثل امرأته التي يتركها في غرفته الحقيرة، سرح في خياله بساقٍ امرأةٍ وقعت على الأرض في الشهر الماضي.. كانت بيضاء، مُلتفّة، شعر برغبةٍ جارفةٍ، ولم يُسيطر على نفسه وهو يهرع نحوها ليساعدها على النهوض، تُرى كيف يكون ملمس السّاق الملتفّة من الخلف.. خلف الرُّكبة بالتحديد، اعتصر في تلك اللحظة أصابعه وهو يتخيّل أنه يعتصر هذا اللحم الشهيّ، نهضت المرأة هي تسبّ الفقر والعازة، وتسبّ زوجها النائم في البيت، والذي يقذف بها إلى هذا الموقف كلّ شهر، المرأة الوحيدة التي لمسها في حياته هي أمّه رحمها الله، وربما لمسها لمرّة وحيدةٍ أيضاً، كان يعتبر جسد المرأة وكأنه مجسّم مُحرّم عليه لمسه، ولو كان يملك المال مثل أولاد الجيران الذين كانوا يلعبون معه وهو صغير، ثمّ انفضّوا من حوله عندما كبروا وأدركوا أنه ابن عتّال سابق، وسيصبح عتّالاً، ولم يلبثوا أن تزوّجوا قبل أن يتّضح اللون الأسود الغامق لشواربهم، ويرى أطفالهم وهم يلهون في الحارة، كان جسد أمّه لازال دافئاً بضّاً وكأنّه يتمسّك بالحياة، أمعن النظر بعينٍ دامعةٍ إلى وجهها، واكتشف جمالاً غابراً فيه، مدّ يده إلى ضفيرتها الفضيّة وهو يرتجف، ووضعها إلى جانب عنقها بعد أن لثمها.. كانت رائحتها لا تُوصف! وربما ذكّرته برائحة الرحم المليء بالسائل

الهلامي الذي حماه جنيناً، انه يعرف هذه الرائحة جيداً ويتحدّى أيّ امرأةٍ أن تنتج غددها مثلها، ماتت أمّه وتركته وحيداً في غرفة حقيرة يقضي ليلته مع صورة، ويقضي نهاره في مجادلاتٍ ومساوماتٍ لا تنتهي مع هؤلاء النسوة، تبّاً لهنّ. صرخ من أعماقه: انه يحمل حمولاتهنّ من عربة النقل الضخمة إلى البوّابة الخارجيّة لمركز التوزيع ويضعها على عربة الكارّو التي تختارها صاحبة الحمولة بعد جدال ومساومة أيضاً مع صاحب العربة وبعد هذا المجهود يبخلن عليه بقطعةٍ فضيّةٍ صغيرة، وكثيراً ما يمنحنه حفناتٍ من الدقيق أو الأرز بدلاً من المال.

كان الزّحام شديداً في ذلك الصباح والنسوة يتكالبن في همّةٍ ونشاطٍ إلى الشباك الخشبي الصغير المدهون باللون الأزرق، تخيّل شباك توزيع البطاقات كأنه باب الجنّة، التي تتسابق إلى دخولها النساء، منّى نفسه بأن يرى ساقاً ملتفّةً عاريةً من الخلف، كما حدث الشهر الماضي، ولا إرادياً بدأ ينظر إلى أسفل، حيث السيقان والأقدام المتسابقة، حين لفت نظره شيء يلمع على الأرض المُغبرّة بالدقيق والمندّاة بقطرات ندى متفرّقة.. أسرع إلى هذا الشيء اللامع والتقطه بأصابعه، ثمّ قبض عليه بكفّه كما تخيّل قبضته على اللحم الأبيض الشهيّ لساق امرأة، تلفّت حوله ليتأكّد أنّ أحداً لم يره، كان الجميع مشغولاً بالمعونات القادمة، ولا أحد يلتفت للآخر، تحسّس الشيء اللامع فوجده مستديراً صغيراً كقطعة نقد، تذكّر أنه طالما لمح هذا الشيء يتدلّى من صدور النساء اللواتي يربطنه بخيط سميك أسود، ويلتفّ حول أعناقهنّ، ويبرز من فتحة

الثوب الفلاّحي المُطرّز الذي يرتدينه، والمُحنّطات من زمن ما قبل النكبة بكثير، كان أشدّ ما يضايقه بخلهنّ وشتمهنّ له وهنّ يبخسنه ثمن تعبه ومجهوده، توقّع أنّ هذه القطعة قد وقعت من إحداهن، فشعر بالسعادة تغمر قلبه وتطفو على معدته التي يعضّها الجوع في نداءٍ متواصل، سيحتفظ بكنزه الثمين، ويدّخر بعض المال بالكثير من الجوع القادم ويرحل إلى مدينةٍ جديدة، لا يعرفه فيها أحد، ويفتتح دكّاناً صغيراً لبيع المواد التموينيّة التي يحصل عليها اللاجئون ويبخلون على أنفسهم بالانتفاع بها ويقومون ببيعها وإنفاق ثمنها على ابنٍ يدرس في الخارج أو في مشروع زواج قادم.. تذكّر الزواج، سيتزوّج بعد افتتاح الدكان مباشرة، ستتمنّى أيّ امرأة الزواج به..

قرّر أن يكفّ منذ هذه اللحظة عن البحث عن ساقٍ عاريةٍ ملتفّةٍ ومكتنزة، سيتزوج قريباً جداً...لاحت من بعيد العربة الضخمة المُحمّلة بالمعونات وهي تتهادى أمام البوابة الخارجية للمركز، امتلأ جسده نشاطاً وقبضت أصابعه أكثر على القطعة الثمينة وأسرع نحو العربة، سوف يعتليها من الخلف وهي لا تزال تسير، وبالتالي يضمن أن أحداً من العتّالين الرابضين أمام البوابة من الداخل لن يسبقه ويعتليها معلناً فوزه بإنزال كلّ الحمولة من عليها وتقاضي مبلغ يعادل أجرة عمل يومٍ كامل من مدير المركز.

حثّ خطاه نحو العربة وكل الأحلام تتراقص أمام ناظريه، اقترب منها أكثر وأكثر وهو يشعر أنه يقترب من باب دكانه فيفتحه، ويقترب من وجه عروسه فيتشمّم أنفاسها، ويطبع عليه

قبلةً سريعةً، امتدّت يده الفارغة إلى العربة من الخلف وحاول التسلّق إليها بيدٍ واحدة، ووثب بقدميه عدة مرات عن الأرض، العربة تتوقّف تدريجياً، ويبدو أنّ سائقها يختار لها مكاناً مناسباً للوقوف، محاولته الأخيرة كادت تفلح لولا أنّه تشبّث بكيسٍ من الدّقيق يبرز من حافّة العربة بدلاً من جسمها المعدني، فوقع على الأرض وفوقه كيس الدقيق، والعربة تتقهقر إلى الخلف مُتّخذةً وقفتها الأخيرة، أفلتت القطعة الثمينة من بين أصابعه، تدحرجت بين العجلات الضخمة، رآها لآخر مرّةٍ وهي تختلط بالدقيق والتراب وتختفي تحت إحدى العجلات، أغمض عينية، ودماءٌ حارّةٌ تسيل من فمه وأنفه، وتختلط بالدقيق المتناثر حوله، تجمّع نفرٌ قليلٌ حول المشهد، كان يريد أن يصرخ بهم، فليسرع أحدكم ويخبر امرأتي، امرأتي تحت الوسادة في غرفتي الصغيرة، لن تتردّد في الحضور والبكاء والعويل. إنه يعرف أن النساء يُجدن ذلك كثيراً كما يُجدن الوقوع على الأرض وتبرز سيقانهنّ المُثيرة، ضحك ضحكةً أخيرةً وهو يُسلم الروح.. ولكنّ كفّه في هذه اللحظة لم تكن تقبض سوى حفنة من الدقيق.

٣٤

الرسالة

في كل صباح تقطع المسافة بين منزلها في المخيم حتى مكان عملها في نفس الوقت فهي تحتاج إلى نصف ساعة من السير الجاد، تستيقظ باكرا، تتناول كوبا من الشاي مع قطعة من الخبز المحمص الذي تغمسه في الزعتر، وتحمل حقيبتها المهترئة بعد أن تلقي نظرة سريعة على المرآة المشروخة التي تضعها على شباك غرفتها، ثم تتخذ سيرها نحو عملها، تعلم أنها متوسطة الجمال، ولكنها فقيرة إلى درجة العدم وليتها متوسطة الحال كما جمالها، تعيش في بيت صغير مع إخوتها الصغار وأمها، أما الأب فقد انتقل إلى رحمة الله منذ سنوات تاركا خلفه هذه الحفنة من الأفواه والسيرة الطيبة.كان فكرها وعقلها مشغولان في هذا الصباح في أمر الرسالة التي تلقتها أمس، فهي بالكاد تعرف القراءة والكتابة، لأنها تركت المدرسة منذ سنوات كثيرة قضتها في البيت لخدمة ورعاية إخوتها قبل التحاقها بالعمل في هذا المصنع، نظرت إلى يديها التي تآكلت أظفارها من تأثير الأملاح والأحماض التي تغمسها فيها كل يوم لساعات طويلة، صاحب المصنع لا يعهد لها بعمل واحد بل انه يتحين الفرص ليملأ كل وقتها ولا تجد وقتا لتلتهم شطيرة أو تشرب كوبا من الشاي أثناء العمل، أحمد العامل المسئول عن النظافة وعن إعداد الشاي للعمال الرجال، يمر كثيرا من أمامها ويقدم لها كوبا من الشاي رفضه أحد العمال بالصدفة، تتناوله منه وهي تتلعثم وتشعر

بالدماء تصعد إلى وجنتيها، حقا هي سمراء ببشرة كالحة من سوء التغذية ولكن بمجرد وقوفه أمامها تجتاحها أحاسيس كثيرة، ترى لم يقدم لها كوب الشاي؟ عللت ذلك لأنها أول فتاة في المصنع يجدها أمامه فهي تقوم بتقميع الخضار ثم تلقي بها لزميلاتها لغسلها ثم إضافة الماء والملح والخل إليها لتصبح مخللا بعد أيام قليلة، فصاحب المصنع لا يهمه صحة الناس فيضيف للبراميل الضخمة مواد على شكل مسحوق أو على شكل سائل لكي يعجل بنضج المخلل وفي نفس الوقت يحافظ عليها من التلف لفترات طويلة، لقد سمعت في إحدى المرات أن هذه المواد تسبب المرض الخبيث، ولكن لا أحد يجرؤ على مجادلته فهو رب العمل الذي يضع في يدها كل شهر مبلغا صغيرا لا يكفي إلا لأقل القليل، زميلتها صباح قالت: يجب أن نبلغ وزارة الصحة عنه، فلكزتها سمر بكوعها قالت لها: ويغلق المصنع ونصبح نحن في الشارع، فتضحك الاثنتان وتردف صباح وهي تدفن وجهها في برميل المخلل: الناس معدتهم بتهضم الزلط، ما بيصير لهم شي ترى هل أحمد هو الذي أرسل لها هذه الرسالة؟ حين نادى ساعي البريد سمر لم تدعه يكمل وهو يقف على عتبة البيت بل تلقفت منه الرسالة بيد مرتجفة ودستها في صدرها وأوصدت الباب خلفه، لم تخبر أمها بأمر الرسالة وأمضت طول الليل وهي تحلم بمرسلها، كان المظروف زهريا جميلا، ومرسوم على أحد جوانبه طفلا صغيرا يطلق سهما، ولم تميز من العنوان والاسم سوى اسمها :سمر.ربما كان أحمد، ولم لا فهو يراها كل يوم في المصنع ولكنه لا يرفع

رأسه لينظر في وجهها ، حمدت الله أنه لم يفعل! ولكن لماذا يرسل لها رسالة؟ هل يخشى من صاحب المصنع لو رآه يتحدث إليها ، ربما..هزت رأسها وهي تحث السير إلى المصنع وتطلق تفكيرها بحثا عن مرسل الرسالة ، ربما كان بائع المشروبات المثلجة الذي يقف بعربته على باب المصنع، هو أيضا يراها كل يوم ولكنها لم تتوقف يوما لتشتري منه فهي بحاجة لكل قرش ولا يمكن أن تفكر بشراء زجاجة من العصير وحين يستبد بها العطش في أيام الصيف القائظة فهي تتجرع الكثير من الماء، الماء لا تدفع له ثمنا ، وأحيانا تغافل صاحب المصنع وتدخل إلى غرفته وتفتح ثلاجته الصغيرة وتجرع ماء مثلجا يتساقط أكثر من نصف الزجاجة على ثيابها وينزل إلى صدرها من فرط سرعتها وخوفها أن يراها ، ضحكت في سرها وهي تتخيل صاحب المصنع يرسل لها رسالة، هو حقا شاب ولكنه متزوج وعنده أطفال كثيرون، ماذا لو كان هو؟ مستحيل أن تقبل به زوجا ، لا يمكن أن تقبل أن تكون زوجة ثانية مهما تقدم بها العمر، ماذا ستقول عنها زميلاتها ، خصوصا سعاد فهذه لوحدها لسانها "سبع' أشبار" ثم أنها لا يمكن أن تبني سعادتها على أنقاض أخرى، ، ،سمعت هذه العبارة في مسلسل عربي تتابع حلقاته بالصوت فقط كل مساء من تلفاز الجيران، فهم لا يملكون تلفازا ، أو بالأصح تعطل تلفازهم منذ زمن ولا يملكون ثمن إصلاحه.تخيلت وهي تجد في السير وتركل حصاة صغيرة من أمام قدمها بطرف حذائها : ألف مرة قلت لك لاتركلي أي شيء بحذائك، هيك يما بتخربي الكندرة، واحنا

مش لاقين ناكل.....ولكنها تجد متعة حين تركل أمامها حصاة وتراها ترتفع عن الأرض قليلا ثم تنزل، ترى نفسها تحلق في عالم من الحلم والخيال ثم تنزل إلى المصنع ورائحة الخل والصبغة الحمراء التي تترك آثارها على أصابعها وتبدو أطراف أصابعها بلون بشع ومشققة ومتآكلة، وضعت يديها في جيبي جلبابها وهي تعبر الطريق أمام العمال الذين يبنون عمارة شاهقة، تخيلت نفسها تسكن في دور علوي من هذه العمارة وترى الدنيا من شرفة عالية، توقف تفكيرها عند عامل البناء الذي ينظر لها نظرة خاطفة ثم ينهمك في خلط الرمل والاسمنت، لم لا يكون هو من أرسل الرسالة؟ كيف عرف اسمها؟ البركة في سعاد صاحبتها.....هزت رأسها وهمت بالابتسام، أمها قالت:إياك يما تضحكي في الشارع و المثل بيقول إذا ضحكت وبان سنها، اتبعها ولا يهمك منها.سعاد صاحبتها لا تنفك تناديها يا سمر..يا سمر طول طريق العودة من المصنع حتى أنها أصبحت تعتقد أن كل من في المدينة يعرف اسمها.لم الحيرة؟ خاطبت نفسها بعد ان كتمت ضحكة بناء على توصية أمها، بعد قليل ستصل إلى المصنع، وتعطي الرسالة لسعاد لتقرأها، سعاد أنهت التوجيهي والتحقت بالمصنع لأن أهلها لا يملكون المال لكي تدخل الجامعة، أما هي فقد تركت المدرسة وهي في الصف الثالث، وبقيت أعواما في البيت حتى التحقت بالعمل في هذا المصنع.أسرعت الخطى أكثر، حتى أصبحت على مقربة من البوابة الرئيسة، رأت سيارة صاحب المصنع تقف في المدخل، تخيلت نفسها تركب إلى

جواره، لا مستحيل..يجب أن يعرف حدوده، لست ممن يرسل لهن رسائل زهرية المظاريف ,أليست فتاة ومن حقها أن تحب وتحب، رسالة زهرية المظروف، سوف تذيع سعاد الخبر اليوم في المصنع، يجب أن تفخر لا أن تخجل، ما ذنبها ؟ هي استلمت الرسالة فقط.كانت سعاد تستعد لتدخل المصنع حين نادتها بلهفة، توقفت سعاد ووضعت يديها في خاصرتها :استني بس ندخل جوا_بدي اياك في موضوع مهم تناولت المظروف الزهري من صدرها وقالت وهي تنهج لسعاد :اقريه بسرعة فتحت سعاد المظروف في لهفة وهي لا تصدق وان لم تخف نظرة حسد، كيف يصل مثل هذا المظروف لسمر التي لا يتوقع لها أحد زواجا، حين قرأته بسرعة توقفت ونظرت إلى وجه سمر الملهوف ,استحثتها أن تقرأ وتسمعها، ترددت سعاد ثم قالت لها: هاي الرسالة بالغلط يا سمر..هادا واحد باعتها لزميلته في الجامعة اللي بيحبها لأنها صار لها كم يوم غايبة عن المحاضرات.شعرت أنها تريد أن تبكي، لا أن تضحك، لا أن تتقيأ.....صمتت ودست المظروف في صدرها ثانية بعد أن ضغطت عليه بأصابعها المشققة بقوة، أصبح بين نهديها، تنفست بعمق، وعبرت من البوابة الرئيسة ولم تنس أن تركل حصاة صغيرة بطرف حذائها.

٣٩

اللقيط

هوايته منذ بدأ يسمع هذه العبارة ويشار إليه بإصبع اتهام من الجميع على جريمة لم يرتكبها، هوايته هي جمع أعقاب السجائر وجمع نوى ثمار البرقوق والمشمش والخوخ يجمع هذه ويكدسها تحت شجرة الجميز العجوز التي شهدت فصلا من حكايته التي لا يعرف لها بداية ويتأمل البقايا، يتشمم بكثير من القرف بقايا أعقاب السجائر ثم يلقيها بعيدا وهو يسأل نفسه كيف يجد هؤلاء لذة في وضع هذا الشيء بين شفاههم واستنشاق دخانه الكريه في صدورهم ثم يلقون بالأعقاب على الأرض ويدوسونها بأقدامهم ويمضون ليشعلوا سيجارة أخرى بنفس الطريقة وبذات النهم، ثم يتأمل النوى الذي جمعه بأشكال مختلفة ويتخيل كم هو لذيذ مذاق الفاكهة الموسمية التي تحوى في جوفها هذا الجسم الصغير الصلب والذي يدعو المرء لو تفكر قليلا لأن يتمهل في التهام هذه الثمار حتى لا تسقط هذه النواة الصلبة الصغيرة في جوفه فتتسبب بمقتله ان كان سيء الحظ ما لم تسبب له أذى مؤقتا ويحتاج إلى الإنقاذ والعون.كان يحاول أن يجد فائدة للنوى حين يلقى على الأرض ولكن عقله لم يجد إجابة وحاول أن يدق نواة بحجر فبرز منها قطعة صغيرة غاية في المرارة ولكنها تشبه اللوز في انسياب هيكلها في حجم أصغر كثيرا.وهكذا حرام. لنفسه، عقبا لسيجارة ونواة لفاكهة صيفية، المرة التي سمع بها العبارة التي أشعرته أنه يختلف وأن في حياته سرا وأن هذه المرأة التي يناديها

أمي ليست أمه كانت حين ضرب ابن الجيران وخرجت أمه منكوشة الشعر على باب البيت وهددته بالويل والثبور لو أمسكت به بين يديها وأنهت تهديدها وهي تصفق باب بيتها خلفها بطلقة الرصاص الأخيرة التي أصابته في مقتل وجعلت حياته بعد ذلك عواصف من الحيرة والأسئلة.ابن حرام..نبتا شيطانيا، ليس له أصل ولا جذر عثرت عليه هذه المرأة في فجر أحد الأيام، كانت تستعد للخروج من بيتها لتلحق بباصات الصليب الأحمر التي ستقلها إلى معتقل النقب الصحراوي حيث يقبع زوجها، وحين خرجت من بيتها سمعت صوتا ضعيفا يصدر من ناحية شجرة الجميز التي تواجه بيتها فاقتربت وهي بين اليقظة والحلم من الصوت تدريجيا وهي ترتجف وأفكارا كثيرة أولها توخي الحذر تتطاول في رأسها وكانت تسمع عن الأشياء التي يلقيها الاحتلال على الأرض للتغرير بالبسطاء ومن ثم يكتشف من حوله بعد فوات الأوان أن ما تخيله كنزا هو قنبلة تنفجر به وتحيله إلى أشلاء، وهي حين سمعت الصوت الضعيف ظنته جهاز راديو صغيرا سوف ينفجر بها لو لمسته، اقتربت أكثر ولكنها وجدت خرقا بالية تحت الشجرة ومن داخلها يصدر هذا الصوت الذي لم تشك لحظة أنه بكاء وليد حديث الوضع، تجرأت أكثر ونظرت فإذا وجه صغير بحجم عملة معدنية يطل عليها، تأكدت أنها أمام كائنا بشريا ولكنه يفوق كل القنابل والمتفجرات في مفاجأته، نادت على حماتها من الداخل المرأة العجوز فهرعت وهي تلومها على تلكؤها وأنها لن تلحق بالحافلة فأشارت إلى الخرقة البالية

التي أصبحت في حضنها وحين استوعبت العجوز الأمر بقليل من العبارات المقتضبة اللاهثة التي لفظتها وهي تشير إلى مكان العثور عليه تحت الشجرة العتيقة، طلبت منها أن تترك الصغير معها وتلحق هي بالحافلة على أن تخبر زوجها بما حدث.حين استقرت بداخل الحافلة التي تنهب الطريق إلى الصحراء حمدت الله في سرها أنها حامل في شهورها الأخيرة والا لكان موقفها صعبا خاصة أن زوجها معتقلا وقصة عثورها على اللقيط تحت شجرة في فجر أحد الأيام لن تقنع طفلا صغيرا، تحسست بطنها المنتفخ وهي تتأكد من دليل براءتها واستعاد ذهنها ما حدث وأعادته على مسامع زوجها الذي أبدى ذهولا وهو ينقل بصره بين وجهها وبين بطنها المتدحرج منبئا بجنين قادم، ثم طلب منها أن تحتفظ به في بيتها حتى يظهر له شأنا واختار له اسما وودعها وهو يوصيها به خيرا.وكان خيرا حين اعتنت به هذه المرأة لعشر سنوات كاملة وأفضل طريقا للعناية به كان حين تذود عنه الاتهامات التي تصب فوق رأسه كل حين من أهل الحي كبيرهم وصغيرهم.حتى إمام المسجد لم يتردد بأن ينعته بهذا اللقب حين أسرع من أمامه بدراجته ولطخ ثيابه بمياه الشارع الموحلة فلم يجد الإمام طريقة للتنفيس عن غضبه سوى إطلاق هذا الاتهام في وجهه وهو يلوم تلك المرأة التي تأويه إلى جوار أطفالها الكثر.ولكن الحياة تأبى الا أن تتركه عاريا هكذا شعر وهو يسمع تلك المرأة تخبره بأنها اكتشفت إصابتها بالسرطان وأنها ستغادر الحياة وتتركه وحيدا، شعر لحظتها انه مريضا عاريا في غرفة طبيب بعيادة حكومية

يكشف عليه بلا ساتر أمام أعين المرضى المتحلقين في غرفة ضيقة والذين ينتظرون دورهم ولكنهم ينظرون إلى جسده في فضول لا يشبه الا سكين جزار وهم يتخيلون أن كل ضربة سكين على جسد الذبيحة سيفجر دماء أكثر يهلل له البسطاء الذين سيلتهمون لحما ويحتفلون ويتحدثون ويلهثون بالشكر على من قدم لهم هذه الذبيحة ثم ينسون خاصة حين يعانون من التخمة وسوء الهضم، وهكذا هو يشعر نفسه سيصبح في هذين الوضعين حين تتركه هذه المرأة, فكر كثيرا لو عادت إليه أمه واعتذرت له وأخذته ليمسك في تلابيب ثوبها ويمشي خلفها ولكن من يلقي بعقب السيجارة أو نواة الخوخ لا يفكر إطلاقا أن يعود ويلتقطها، كثيرا ما جلس أمام شجرة الجميز وهي تفصل في موقعها بين مخيم اللاجئين والشارع المؤدي إلى المدينة وسرح في خياله وهو يرى النسوة رائحات غاديات، ان المرأة التي ربته باحت له أنها تعتقد ان أمه من قاطني المخيم لان الملابس التي كان يرتديها كانت باليه تدل على فقر وعازة وأيضا ملامحه، لا يحمل ملامح المواطنين سكان المدينة الأصليين الذين ينحدرون من أصول تحمل بياضا وشقرة وشعرا ذهبيا ناعما وعيون بأحداق ملونة.نظر إلى نفسه في المرآة فوجد وجهه يحمل لونا أسمرا كالحا وملامحه تميل إلى ابن مخيم كما قالت تلك المرأة وربما لم يتأكد من صدق قولها ولكنه لم يجد الا أن يصدق ثم أصبح ينظر باستمرار إلى الطريق وهو يرى النساء الوافدات من المخيم والمارات بشارعهم الطويل المؤدي إلى المدينة الواسعة، أحيانا يتخيل أنها أنجبته بعد اغتصاب

فيرثى لها وينتحل لها العذر ولكن سرعان ما يستبعد هذه الفكرة لأن الإنسان حين يسلب حقا فانه يبحث عن أدله تثبت ما لحق به من جور وظلم بعكس لو ارتكب خطيئة فانه سرعان ما يتخلص من كل دليل أو إصبع اتهام يشير إليه ولو كان ابنا لمغتصبة فربما احتفظت به هي أو أحدا من أهلها أملا في استعادة حقهم وربما أصبح الخيط الوحيد الذي يدلهم على مرتكب الجريمة ولكن إلقائه بهذه الطريقة يؤكد له أنه ابن لحظة كان الشيطان ثالث رجل وامرأة، ابن شهوة وابن تجربة أولى لفتاة صغيرة تكتشف جسدها لأول مرة وتفجر مكنون شهوتها لأول مرة، شعر بالرثاء نحوها لحظة وهو يتخيلها لا تجد طريقة ولا وسيلة للتعبير عن حبها لأول رجل في حياتها سوى أن تهبه جسدها ولكنه ألقى ببذرة شهوته وغريزته في رحمها ثم رفع بنطاله وأحكم شد حزامه وهرول إلى غير رجعة.....هنا شعر بها بلهاء لا تستحق سوى أن تودع في مستشفى للمجانين فكيف تهبه جسدها وأعز ما تملك في الخفاء وهو لم يقدم لها سوى عبارات ولكمات ربما كانت اسطوانة أعاد تشغيلها على مسامع الكثير من الفتيات قبلها.....جال به خاطرا أخيرا واحتمالا أخيرا فلم لا يكون ابنا لمومس أو داعرة تخلصت منه حتى تتفرغ لعملها الذي هو مصدر رزقها، أشفق على نفسه من هذا الاحتمال الأخير وتمنى في قرارة نفسه ألا يكون رحم هذه الداعرة هو من حمله ,ربما الاحتمالات السابقة بقسوتها أكثر رحمة ورأفة به من هذا الاحتمال، هل يشعر بالحنين إلى تلك المرأة التي ألقت به تحت شجرة الجميز، انه يتمنى لو التقى بها،

ماذا سيقول لها: ارحميني، أشفقي على، أعيديني إلى فمك وابلعيني كنواة خوخ أو مشمش أو برقوق، أو خذيني إلى الرجل الذي وضعني في رحمك ولكن ماذا هو صانع بعقب سيجارة بعد أن استمتع بسيجارة كاملة وألقى بالعقب على الطريق، ماذا سيصنع به؟ استمر فأمك، النوى وهو يتأمل كل نواة ويضحك, ثم التقط عقب سيجارة وتشممه، تشممه أكثر حتى تخيله بذرة إنسان تعودالى ظهره بين صلبه وترائبه، التقط عقبا ذهبيا يبدو صاحبه ثريا، التقطه بين أصابعه الصغيرة ,وتذكر المرأة التي ربته ثم تركته وحيدا، سالت من خده دمعة ووقف على قدميه ورأى شابا يمر في الشارع مهندما أنيقا، أسرع إليه واستوقفه وقدم له عقب السيجارة الذهبي، نظر إليه الشاب وقال له:هل أنت مجنون ؟وماذا أصنع بعقب سيجارة ؟أنت لم تجد أهلا يربونك ويعلمونك ؟ملعونة أمك، ، ، ، ،استشاط الصبي غضبا واحتشدت عينيه بأمطار غزيرة وهو يصيح:وملعون أبي.....

٤٥

الضائع

لم يتوقع أن تعصف به الحياة بهذه القسوة والقوة والسرعة، فقد اعتاد كل شيء منها منذ وعى عقله الحياة , الفقر بأبشع وأوضح صوره ، البيت الذي يتكون من غرفة واحدة بسقف قرميدي محطم تخترقه مياه الأمطار، ولا يحميهم من أي شيء حتى من صوت القصف في المخيم والغرفة الواحدة يمتد أمامها ممر صغير تضع به أمه بعض أدوات الطعام وتطلق عليه اسم مطبخ،أما الحمام فهو مشترك بينهم وبين عائلة عمه الذين يقطنون أيضا في غرفة بمثل مساحة غرفتهم ، ولكنهم أفضل حظا منهم لأنهم بمجرد وفاة جدته استولوا على غرفتها وحولوها إلى مطبخ ، يحوي أدوات طعامهم القديمة المحترقة الجوانب وتضع زوجة عمه في أحد أركانه أكياس الدقيق التي يحصلون عليها من وكالة الغوث "الأونروا" .لم يكن يرى داعيا لكي تحسد أمه زوجة عمه هذه على الغرفة التي استولوا عليها وطالما سخر في أعماقه من سذاجة أمه التي لا ترى في الدنيا من ملذات وثروات أكثر من غرفة تماثل غرفتهم حقارة حصلت عليها "سلفتها" بذراع القوة أو بوضع اليد بمجرد دفن جدته العجوز ولم تنتظر حتى انتهاء مراسم العزاء بل بدأت توعز لأطفالها بنقل حاجياتهم إلى الغرفة في وجود المعزين وكأنها تسيطر على قطعة أرض متنازع عليها بين دولتين متجاورتين.حياتهم في غرفة واحدة هو ووالداه وأخواته البنات

الأربعة وأشقاؤه الثلاثة جعلته يكبر قبل الأوان ، ويعرف عالما مجهولا هو عالم النساء قبل الأوان فكثيرا ما استيقظ في الليالي الباردة على عواء إحدى شقيقاته وأمه تهرع لتعد لها كوبا من النعناع المغلي الذي تطلبه بالكثير من الخجل من جيرانهم، ويسمع أمه تتحدث عن هذه الآلام المعتادة ويرى ملابس أخته مبقعة بالدماء الجافة في الصباح الباكر ويرثى لها ويشعر أن النساء عالما يختلف عن الذكور من أمثاله وأمثال والده وأشقائه، فيشفق على شقيقته من الذهاب في صبيحة اليوم التالي إلى المدرسة وهي التي لم تنم في الليلة الماضية ولكنه سرعان ما لعن هذا التوعك الذي لم يدع في قلب والده شفقة ولا رحمة بل إنه اتخذه بشارة طار بها إلى أعمامه وسمعه يخبرهم بترحيبه بزواج ابنته من أحد أبنائهم. وقد كان فقد تزوجت شقيقتاه بفارق زمني لا يتجاوز العام وبفارق زمني لا يتجاوز الشهور القليلة بعد إفاقته على صوت عواء كلتيهما ذات ليلة باردة.لم يشعر بالحزن كثيرا حين توفيت جدته العجوز الطيبة، وزوجة عمه الشرسة تستولي على غرفتها وأمتعتها القليلة، ولكنه بكى في ليلة فراق شقيقته الأولى كما لم يبك منذ ولد، خاصة حين عادت أمه في وقت متأخر من الليل وهمست بكلمات كثيرة لم يفهم منها إلا القليل في أذن أبيه ولكنه علم أن الليلة الأولى لشقيقته في بيت زوجها الذي هو ابن عمها كانت مؤلمة لها وهو يسمع كلمات متناثرة عن دماء نازفة وإغماء وبصلة قربتها الأم من أنفها لتفيق، ولكن ذهوله بلغ ذروته وهو يرى بهجة أبيه تتسع لتملأ وجهه الكالح الذي لوحته

الشمس التي يستقبلها طول النهار وهو يتنقل بين ظل شجرة وأخرى في الشارع الضيق الذي يواجه البيت الصغير.امتلأ قلبه حقدا على ابن عمه الذي تسبب بالألم والاغماء لأخته الحبيبة الرقيقة الشقراء والتي تركت دميتها وحقيبة مدرستها ودفتر الرسم الذي يحمل رسوماتها البريئة في ركن من الغرفة ورحلت إلى بيت هذا الرجل القاسي الذي لم يرحب بها كما يجب الترحيب بملاك صغير ولم يحسن وفادتها كما يليق بأميرة

تكرر الأمر ذاته مع شقيقته الثانية ,وأصبح قلبه يحمل نفس الحقد لابن العم الذي هو الشقيق الأصغر لابن العم الأول، ولكن مع المرور الأيام وجد أن شقيقتيه كفتا عن الألم وعن الاغماء وبدأن يتهامسن حين يلتقين بأمهن في غرفتهن الصغيرة بأحاديث ضاحكة، بل ويذكرن هذه الليالي الأولى التي مرت عليه وهو يحترق من أجلهن، وجدهن يذكرنها بالكثير من الضحك والسخرية في عبارات على سبيل كم كنا بلهاوتين ساذجتين.....عادت به الذاكرة وهو يسمع هذه الأحاديث بين شقيقتيه حديثتي العهد بالزواج وأمه، عادت به الذاكرة إلى تلك الليالي التي يناديهم فيها والدهم بأسمائهم الواحد تلو الآخر ليتأكد من نومهم حين لا يجيبون ولكنه كان لا يجيب لظنه أن والده سيأكل شيئا ما في غفلتهم، ولم يكن يعرف أن والده يفعل ذلك ليأكل أمه فقد كان يرفع رأسه قليلا من تحت الغطاء البالي الذي يشترك فيه هو وأشقاؤه الثلاثة وينام هو على الطرف المفضي إلى الحشية التي ينام عليها والداه متجاورين وحين يرفع رأسه كان يرى النصف الأسفل لوالده

عاريا في حين أن أمه عارية تماما ووالده يعتليها وهي تطلق تأوهات خافتة تصل إلى أذنيه وقد كان يظنها في البداية تتألم وود لو قفز من فراشه وأضاء النور لينقذها ولكن استسلامها وخنوعها لوالده وترديدها عبارات معينة وبعض الضحكات الهامسة الخافتة جعله يدرك ان هناك شيئا مشتركا يمارسه والداه في الخفاء، ويجدان متعة في ممارسته خاصة أنه في الصباح الباكر يستيقظ ليسمع والده يغني وأمه مشرقة الوجه وهي تنقل ملابسا لوالده من الخزانة الخشبية العتيقة إلى الحمام المشترك بينهم وبين عائلة عمه وأصبح ينتظر هذه اللقاءات الليلية ويعدها ويحصيها، ويؤقت لها وحين أصبح في السادسة عشرة من عمره بدأ يشعر بمتعة في سماع الايقاع الصادر من صوت والديه وحركات جسديهما ، وحفيف الفراش في حلكة الليل الدامسة .حتى أفاق ذات صباح كالمعتاد ، وسمع غناء والده في الحمام ورأى اشراقة وجه أمه الحنون، وتمنى في قرارة نفسه لو أخبرها أنه يعرف سر اشراقها الذي لايدوم طويلا فسرعان ما تكتسحه مشاكلهم اليومية من الغرفة التي غرقت بماء المطر ، إلى تأخر المعونات عنهم، وصداماتها اليومية مع زوجة عمه، وأخيرا والده الذي ينسى كل ما كان في الليلة الماضية من السيمفونية التي تعزفها أمه على مسامعه، إلى جسدها البض الأبيض المتسق الذي يتكسر ويتخدر تحت وقع رجولته ويبدأ بكيل الشتائم لها والانتصار لزوجة أخيه خوفا على غضب أخيه منه على حساب مشاعر أمه التي كثيرا ما مزقت قلبه الصغير .

خرج والده كالعادة ليستظل تحت شجرة وارفة في شمس الضحى ولكنه سرعان ما سمع صوت طلقات الرصاص تملأ الحي, لم يمتليء قلبه الصغير خوفا على أحد من البشر الذين يملأون الشارع، ولكنه خاف على سقف بيتهم من الانهيار التام وتصبح السماء سقفا أبديا لهم، ولكن الأصوات تعالت فجأة ليميز من بينها من ينعى والده الذي أصابته رصاصة في مقتل.في لحظة استشهد والده، استكان الجسد الذي مارس رجولة لم يجد لها محفلا سوى جسد أمه، والذي كال الشتائم لزوجته، بعد أن اغتسل وشعر بالرضا عن نفسه وتيقن بداخله أنه لايزال سيد البيت ويمارس ما يمارسه الأغنياء والفقراء عامة.

أصبح بلا أب، والمدرسة يفكر في تركها الآن أكثر من أي وقت مضى، لأنه كان يذهب لها هربا من وجه أبيه الغاضب دائما وحتى لا تنقطع المعونات عنهم رغم أنه قد رسب ثلاثة أعوام متتالية في صف واحد ويسمع السخرية والتقريع كل يوم من المدرسين والزملاء والناظر ,ولكنه كان يحتمل حتى يظل مسجلا في بطاقة الاعاشة طالبا ولا تقتطع الأونروا نصيبه من المعونات التي تصرفها لهم , وهو لا يحقق رغم رسوبه في نفس الصف أي تقدم ولا تظهر كذلك أي بوادر أمل أنه سيجتاز هذا الصف وينتقل إلى صف آخر، ولذلك الآن وبعد موت والده شعر أن تغيرا يجب أن يحدث في حياته ولكنه لا يدري ما هو، ربما سيعود طفلا باكيا ويقبع إلى جوار أمه بلا عمل ليل نهار ويراقبها وهي تبكي حينا، وهي تسرح حينا آخر وتستذكر والده وماذا كان يفعل ويأكل ويقول؟ ود لو قال لها ماذا كان

يفعل والده في ظلمة الليل ولكن حياء منعه ,واشفاقا على أمه التي لاتزال شابة اعتصر قلبه بقبضة ضخمة موجعة.

بعد استشهاد أبيه أصبح يتجول في الشارع الضيق يراقب المارة والجيران، وبدأ يلمح جارتهم الشابة الحسناء التي تتأمله طويلا، ثم تشير له من شرفتها أن يتقدم من باب بيتها، فيتقدم وجلا وتسارع هي لتفتح له الباب وتطلب منه شراء بعض الحاجيات لها من البقالة المجاورة وحين يعود لها بما طلبت كانت تنظر له من وراء فرجة الباب فيرى حسنها وجمالها، ويتذكر ما يمارسه الأزواج فيشعر برغبة قوية في الاستماع لصوتها وجسدها يتكسر تحت وطأة رجولة زوجها الضخم، تخيل جسدها الرقيق عاريا فشعر بنشوة ولذة , أفاق منهما على صوتها الهامس وهي تمنحه قروشا تفوق ثمن ما اشتراه لها.

تكررت نداءاتها له، وأصبح يشتري لها ما تريد ويظفر منها ببعض القروش ونظرات قليلة ولكنها مشبعة بالنسبة له ليستعيدها طوال الليل في فراشه، وينسى وهو يستعيدها، أمه التي تطالبه كل يوم بالعودة للمدرسة إكراما لروح والده الشهيد، وينسى أيضا المدرسة ذاتها ورسوبه المتكرر فيها وسخرية كل شيء في المدرسة منه، وينسى أخيرا سقف الغرفة الذي لم ينهدم بعد القصف الأخير ولكنه أخذ روح والده، ولكنه لا ينس عواء شقيقتيه ولا صوت أمه الهامس الضاحك تحت جسد والده نصف العاري .

الأيام التالية لم تزده إلا ضياعا، لا يدري ماذا يفعل ؟ ولا اين يذهب ؟ فكر بالبحث عن عمل ولكن أي عمل يجيده من هم

سنه ، وحتى لو عثر على عمل ، فهل سيجد عملا مجزيا ينقذه من هذا الفقر الجاثم فوق عائلته منذ الأزل كما يعتقد ,حاول أن يطلب عملا من جارهم موزع اسطوانات الغاز ولكن بمجرد أن ألمح له بذلك سخر من بنيته الضعيفة، وسنه الصغير، فتوجه إلى جارهم الآخر الذي يملك متجرا للملابس فرفض قائلا أنه يريد بائعين بمظهر مهندم لا يبدون كالمتسولين، تذكر عبارات المواساة التي صبها هؤلاء في أذنيه في الأيام الأولى من استشهاد والده، أراد أن يبصق في وجوههم ويقول لهم أن أبي كان أكثر مروءة ونخوة منكم .عاد إلى البيت في المساء واستكان في فراشه وألقى نظرة خاطفة على أمه التي تستعد للبكاء كما كل ليلة، ولم يفكر أن يواسيها أو حتى يستحثها على البكاء ليبكي معها ولكنه سرح بعيدا وفكر لو كانت حياته أفضل وأجمل وأقل فقرا لما كبر قبل الأوان ، لما امتلأ قلبه الصغير بالحزن والأفكار والأسئلة، ، ، ، ، ،تنهد واستذكر وجه جارتهم الصغيرة الحسناء وهي تنظر له نظرات لم يفهمها وأيضا لا يفهم سبب إصرارها على منحه مبلغا من المال كل يوم يفوق ثمن ما تطلب منه شراؤه لها من محل البقالة القريب، بالأدق هو لا يريد أن يفهم .

٥٢

التميمة

يجب أن تذهب للمرأة العجوز التي اعتادت الذهاب إليها ، الذهاب إليها واجب مقدس ، أو أمر مفروغ منه ,ابنتاها الشابتان أصبحتا في سن الزواج ولم يتقدم لهما أحد ، حقا أبوهما فقير لا يملك من متاع الدنيا حمل بعير، ولم يكن يملك حتى يقال أنه كان عزيز قوم ثم ذل، منذ تزوجت به وهو ابن عمها لا تفارقه صفة الفقر، وتم زواجها به رغم معارضة أمه , أمه كانت تنحدر من أسرة عريقة، أما هي فدائما ما كانت تتحدث عنها حماتها بأنهم "لمامة" ولم تكن تعرف في صغرها معنى الكلمة ، ولكنها تأكدت أنها كلمة سيئة ,وكانت تستغرب بشدة أن تقبل حماتها الزواج بوالد زوجها الذي هو عمها وهو من عائلة بهذا الوصف، ولم تأت أبدا الفرصة التي تجعلها تعرف ظروف زواجهما ، ولكن اصرار ابن عمها الزواج بها جعلها تشعر بنشوة انتصار بداخلها ، أنها انتصرت على تلك المرأة التي لا تتوقف عن الحديث عن عائلتها العريقة، من احدى مدن فلسطين الشمالية ،أما والدها وعمها فهما ينحدران من قرية صغيرة.تزوجته وهو فقير ,كانت تعاني من ضعف في السمع ولذا عيرته أمه بها وقالت له: كيف تتزوج "بواحدة طرشة "فيرد عليها بتصميم :لن أحدثها إلا بالصوت العالي، وقد كانت في صباها تتردد مع أمها على المرأة العجوز التي تعتقد أنها قد وجدت لتحل لها مشاكلها والتي كانت تخبر الأم أن سبب ضعف سمعها هو الحسد والسحر، فتصف لأمها

الكثير من الوصفات لتعملها حتى تستعيد قدرتها الكاملة على السمع ،ولكن ذلك لم يحدث، واستمر ثقل سمعها ملازما لها ولكن ذلك لم يقلل من مكانة تلك المرأة عند أمها وعندها بالتبعية، لأنهما أجزمتا أن من حسدها وسحرها هو شيطان مريد لا قبل للإنس لمواجهته حتى تلك العجوز، التي كانت تتغضن يوما بعد يوم مثل حبة برتقال سقطت من فرعها المعلق بشجرة ضخمة، وظلت ملقاة على الأرض يراها الجميع ولا أحد يفكر بتناولها أو القائها بعيدا.هي تنظر للمرأة المتغضنة والتي تفوح منها رائحة غريبة ليست بالكريهة ولا الطيبة، وتطيل أظفارها حتى تصبح كالمخالب ,وتدق الوشم الأخضر على زاويتي فمها الخالي من الأسنان، تنظر لها على أنها كائن غريب، ذو قدرات عالية ولكن البشر بالنسبة لها يمتلئون شرا وعدوانا لدرجة ألا يجدي معهم قدراتها الفذة.حين تزوجت لم يدخل بها زوجها منذ الليلة الأولى كما يجب أن يحدث، ولذا أسرعت أمها في صباح اليوم التالي بجر العجوز إلى البيت لتقرأ التعاويذ وتنثر أبخرة البخور والعود والمسك في المكان، وقد أفلحت تلك الطريقة ودخل بها زوجها ,ولم تنس تلك العجوز أن تطلب منها في لهجة تحمل التحذير والوعيد أن تحتفظ بثوبها الأبيض الذي تلطخ بدماء عذريتها في مكان أمين، وتحافظ عليه كما تحافظ على حياتها ، وقد فعلت دون نقاش وهي لا تعرف ما جدوى الاحتفاظ بثوب مرت عليه السنوات وتحول لون الدماء الحمراء القانية إلى لون أسود كريه المنظر لا يثير بنفسها سوى الرغبة في القيء، ولكن زوجها أصبح مذ دخل

بها يؤمن بقدرات تلك العجوز التي أنقذت رجولته وهو يشعر بقرارة نفسه أنها لم تفعل شيئا سوى اصلاح موقف أمام الأهل والأقارب, بل ويحثها دائما على زيارتها لكي ينالا بعضا من بركاتها.لم يتأخر حملها ووضعت ابنتها البكر بعد تسعة أشهر من يوم زواجها، وأغدقت عليها العطية التي اقتطعتها من قوتها وزوجها، ولكن السنوات القادمة حملت لها الكثير من التعاسة، فهي قد وضعت مولودا ذكرا توفي فور ولادته، وحزنت عليه أيما حزن، ثم تبعه بعد أشهر قليلة مولود آخر ولكنه لم يقض في الدنيا سوى لحظات ,فهرعت إلى العجوز تطلب نجدتها، ونجدتها كانت حاضرة وهي تخبرها بصوت كالفحيح، أن هناك حسدا وسحرا من العالم السفلي لها ولصبيانها وأن جنية شريرة بالتحديد لا عمل لها سوى قتل أطفالها الذكور حتى يبقى زوجها أبترا بلا ابن يحمل اسمه والدليل أن البنت البكر قد عاشت فهي بأي حال من الأحوال لن يخلد أبناؤها اسم أبيها.بعد هذه المقولة أصبحت هي كالمسحورة تسير خلف العجوز بكل ما تأمرها به، أحضرت أقدام كلاب ميتة وعلقتها على كل باب في بيتها، امتنعت عن الاستحمام طول فترة حملها الجديد، ارتدت هي وزوجها وابنتها الملابس بالمقلوب، لم تعبأ بسخرية من حولها بمنظر ثيابهم وهي تبدو مقلوبة , وآثار الخياطة الداخلية ظاهرة للعيان، وضعت الكثير من البخور في أنحاء البيت، عاشت في ظلام دامس ولم تسمح بفتح شباك أو ازاحة ستارة بالية، احتمل زوجها أن يأكل الطعام نيئا كما أشارت العجوز لأن الجنية الشريرة تشاركهم

التهام الطعام الناضج، أما الخرزات الزرقاء فقد وجدت طريقها لتعلق في صدورهم وعلى خصلات شعرهم، ومنعت زوجها من لمسها في فترة الحمل، رغم أنه في الواقع لم يعد يطيق رائحتها وهي التي لم تمس الماء منذ أشهر.وجاء موعد ولادتها وحضرته العجوز لتضع بين يديها مولودتها الثانية، رغم كل تأكيدات العجوز أن القادم ذكر ,وشاعت مشاعر اليأس في نفس الزوج ولكن يقينه بقدرات هذه المرأة لم يتزعزع وهي تنتحل العذر تلو العذر وتسوق الأسباب لوفاة أكثر من مولود ذكر بعد الأنثى الثانية، بل انها أشارت عليهما أن يذبحا كل عام خروفا سمينا ولا يمسانه ويلقيان به أمام البيت وذلك فداء للبنتين حتى لا تلحقا بالأجنة التي لم تظفر من الحياة إلا بلحظات.ومرت السنوات وتقدم بها العمر ولكن هذه العجوز تأبى أن تموت وتفك أسرها، تشعر أنها تختنق وأنها منقادة لها كعمياء، لا تستطيع أن ترفض لها طلبا ,خاصة أن ابنتيها أصبحتا في سن الزواج ولم يتقدم لهما أي خاطب ,زيارتها القادمة للعجوز يجب أن تظفر منها بنتيجة، انها خائفة ولا تنام الليل وهي تفكر بمصير ابنتيها، وتفكر أكثر لو أن عليها أن تدور في دوامة جديدة من تلك الدوامات التي أدارت بها العجوز حياتها كل هذه السنوات.قبل شروق الشمس كانت تحث خطاها نحو بيت العجوز وهي تشعر أن قدميها تسيران لوحدهما وأن عقلها وقلبها لا يستطيعان أن يتخذا قرارا.حين أصبحت أمامها شعرت بها تنكمش وتتغضن أكثر وأكثر، ورائحة عفن كعفن الخبز تفوح منها، ولكنها تحرك أصابعها ذات العروق المزرقة نحوها

وتشـير إلـي الأرض بمخالـب بشـعة..وهي تنظـر لهـا في صـمت، وتوميء برأسها لأسفل علامة الطاعة بين لحظة وأخرى .

حب في لحظة احتضار

لقاؤها الأول به لا يشبه أي لقاء، لأنه كان بالنسبة لها كما لقاءاتها الأخيرة بمن تحب، كلها لقاءات مودّعة لا واعدة، فهي تودّعهم إلى حيث لا لقاءات أخرى ولا تودّعهم إلى مواعيد قادمة فيها الكثير من الحديث والعواطف والحوارات، وقد تمنّت في داخلها لو كانت هناك لقاءات قادمة مع من تحبّ حتى لو حملت عتاباً أو حتى وشايةً أو بعض الضغينة. الأطباء أجمعوا أن أيامها في الحياة أصبحت معدودة وهي الآن بمرحلة الوداع الأخير، وإن أصرّ والداها أن تتعلّق بالأمل الأخير.والدها بحكم منصبه أجرى الكثير من الاتصالات، واحتاج إلى تقديم الولاء لذوي الأمر والنفوذ، إلى درجة التوسّل، لكي يستطيع أن يمنحها تأشيرة سفر عاجلة إلى مصر مجتازاً قائمةً طويلةً من الإجراءات والتوقيعات التي لو تمّت لن تفعل شيئاً سوى إنقاص أيام عمر ابنته في الحياة، وهو يريدها أن تحيا أياماً أطول، فهي الابنة الثانية والأخيرة، وليس له أبناء ذكور وطالما داعبته قائلة: لا تخف يا بابا سوف أنجب عشرة أولاد، وأُطلق عليهم اسمك: أحمد. وتزوجت من شاب لا يحمل من صفات فارس الأحلام التي رسمها الأب في مخيّلته أي صفة، إلا أن ابنته تحبّه بجنون وهي التي حصلت على شهاداتها العليا من دولة غربية مما جعلها تقترب من منتصف عقدها الثالث بلا زواج، وهذا كان غريباً في مجتمع مثل مجتمع غزة، يبدأ في مصمصة شفاهه وتجهيز لافتةٍ باسم "عانس" لأيّة فتاة بمجرد اقترابها من عامها العشرين

بلا زواج، إن لم تشفع لها شهادة ضخمة تُلقي بها بين هذه الشفاه التي على وشك أن تمطّ وتضيق لتخرسها، وان لم يشفع لها أيضاً نصيب بارع من الجمال، ومنصب مرموق لأب واسع الصيت.وقد كان لها كلّ هذه المبررات التي جعلت مثل هذا الشاب يحكم شباكه حولها بالقليل من عبارات الغزل، والتي لم تكن تجد الوقت لتسمعها، ولكنّها فتحت لها نافذة قلبها فنفذت، وكان الزواج أمام الكثير من المعارضة غير المجدية من الأب، الذي لم يعتد أن يرفض لها طلباً وهي المدلّلة المرفّهة، والتي قطعت له وعداً بعشرة ذكور يحملون اسمه، فجعلته يصدّق ويحلم أن ابن الابنة ربما يكون له عزوة وعوناً وسنداً في كبره، وليس كما درجت الأمثال الشعبية التي كانت أمّه أوّل من يروّج لها وتتناقلها النسوة من بعدها: ابن ابني يا ابني وابن بنتي يا ابن الغريب.سنوات خمس مرّت على هذا الزواج ولم تبد أي بوادر لحفيد قادم، هيّأ الأب نفسه لاستقباله وتهيأت هي له منذ الأشهر الأولى للزواج، خاصّة أنّ أختها التي تكبرها بعام قد رُزقت بابنتين جميلتين، بعد عامين متتاليين لزواجها، وحين كانت تُظهر لزوجها قلقها وانتظارها، خاصّة مع اقتراب الموعد الشهري لطمثها، كان يردّد لها عباراتٍ على شاكلة ألا تستعجل، وهو يريد أن يعبّ من جسدها كيفما يشاء، قبل أن تشغله بطن منتفخة، وحليب يسيل من صدرها، وبكاء رضيع يعكّر عليه صفو لياليه التي يقضيها فوق ملعب جسدها.ولكنها لم تكن أبداً سعيدةً ولا راضيةً، لأن حلم الأمومة كان يمرّ في مخيّلتها في كلّ ليلة يجمعهما فراش،

وهي تتمنّى أن تنتهي هذه المباراة ببذرة جنين يُقذف في رحمها، نفسها التوّاقة تلك إلى طفل صغير يملأ عليها حياتها، التي تشعرها بفراغ لا منتهٍ، وهي تكتشف يوماً بعد يوم خطأ اختيارها لشريك حياتها، الذي يبتعد عنها إلى عمله وصفقاته التي تتّسع بفضل اسم والدها وارتباطه بابنته، والذي لا يقترب منها إلا ليخوض فوق جسدها المشتعل لهفةً للإخصاب، لا النشوة العابرة السريعة، ليخوض فوقه حرباً لا مباراة، ويخيّل لها أحياناً أن جسدها بالنسبة له، الصّفقة الوحيدة التي يغامر بها باسمه وشبابه وسمعته، ويترك اسم والدها وسمعته على باب الغرفة.حتى كان يوم شكت له من إفرازٍ ما بلونٍ داكنٍ تسرّب من ثديها بعد مداعبة طويلة تخلّلتها قسوة متعمّدة من ناحيته، وكأنه يعبر عن سطوته ونفوذه على جسدها، أخبرته متوجسةً ولم يزد أن ضحك منتشياً وهو يتخيّل نفسه رجلاً خارقاً للعادة، أما حين باحت بملاحظتها لأُمّها، فقد ضمّتها الأخيرة إلى صدرها وهي تحاول إيجاد مبرراتٍ واهيةٍ أو ساذجةٍ مثل: أن هذه علامة لحمل قريب بإذن الله، أو نتيجة لإغراقها بالتفكير في الحمل والأمومة، أو ربما رأت طفلاً صغيراً وتمنت لو كان ابنها وضمّته إلى صدرها.وطوت الأيام الشكوى ببعض الإهمال والنسيان الذي نتعمّده لمخاوفنا ومجاهلنا ولكن الشكوى سرعان ما تحوّلت إلى عرض أصبح السكوت عنه مستحيلاً، هناك ورمٌ صغيرٌ في ثديها وألم يداهمها فجأةً ويختفي فجأةً، الزيارة الأولى للطبيبة مع أختها بعد إحجام الزوج عن مجاراتها حسب قوله لادعاءاتها وأوهامها، وضعت أمامها كشفاً كبيراً

باللاتينية لمجموعة من التحاليل التي يجب إجراؤها، والتي لا تظهر نتائجها في نفس اليوم.سرطان الثدي، هكذا كانت نتيجة التحاليل، وهكذا أحجم زوجها عن مداعبة صدرها، أو حتى النظر إليه، وشيئاً فشيئاً، أصبح يُحجم عن النوم معها في غرفةٍ واحدة، ولم يحتج إلى كثير من الأيام، ليغادر البيت إلى غير رجعة، ولم ينس وهو يجمع ثيابه، أن ينظر إلى ثديها الذي بدأت تتلقّى له جرعاتٍ من العلاج الإشعاعي، نظرة المودّع المُنتصر والنادم على حرب كان يقودها ضد ميّت.لقاؤها الأول به كان في قاعة أحد المستشفيات الكبرى بمصر، اللهجة الفلسطينية والغزّية بالتحديد جمعتهما في هذه القاعة، وأخبرته أنّها بصحبة والدها الذي يعالج من السرطان، لا تدري لم أخفت عنه الحقيقة، ربما هرباً منها وربما لأنها لا تريد عطفاً أكثر مما تجد ممن يعرفون حقيقة مرضها، أمّا هو فقد أخبرها أنه يقوم بنفس المُهمّة، ولكن بصحبه أخيه الذي يعاني من سرطان المثانة، نتيجةً لعمله في بيع مواد التنظيف الكيماوية الرخيصة.اللقاءات اليومية التالية كانت في حديقة المستشفى الواسعة والعابقة بالزهر، رغم تسرّب رائحة البنج والدواء إليها، ولكنّها حين تنظر إلى عينيه المُتعبتين واللتين يتسرّب إليهما الوهن يوماً بعد يوم، كانت تشعر أنها في أجمل بقاع الأرض، وأكثرها نُضرةً وخضرة، الحديث بينهما يصل إلى كل شيء إلا المنطقة المُحرّمة والتي رأتها كذلك، فلم تُخبره بأمر الزّوج الذي ولّى هرباً، أمّا هو فلم تعرف عنه إلا منشأه البسيط، وعمله في مساعدة أخيه المريض، وأن وصولهما إلى هذا

المستشفى الضخم، كان بعد حصولهما على تبرّع كبير من أحد أثرياء غزة.كان ينظر لها كما ينظر المرء إلى وردةٍ جميلةٍ توشك أن تذبل بعد قطافها من بستانها بأيام، ووضعها في كوبٍ مائيٍ، وفي مواجهة الشرفة، فتُطبق عيناه على محاسنها كما تُطبق تلك الزهرة بحنوّ على أوراقها التي تحتضر، وكما تُطبق فراشةٌ على جناحيها وهما يوشكان على الاحتراق من لهب مصباح جذبها نوره وبهاؤه.اقترب موعد عودتها إلى غزة ومعها تقرير طبي مختصر أن وقتها في هذا المستشفى هو إهدار لساعات وداعٍ يجب أن تقضيها بين ذويها، التقت به في الحديقة التي شهدت لقاءاتهما الأخيرة، وهمّت بأن تفتح فمها لتخبره الحقيقة، فسبقها دمعها،وسبقتها أيضاً شفتاه اللتان راحتا تمطرانها بقبلاتٍ هامسةٍ دافئةٍ، وكأنّه يُصلّي ويسجد لشفتيها وعنقها وحتى صدرها، الليل كان قد أرخى ستره على الركن المنزوي من الحديقة المواجهة للمستشفى، وشقّت سكونه وظلمته بحكايتها التي لم يُعقّب عليها بحرف، ولكن أضاف عليها أنه يعرف كل شيء منذ اليوم الأول للقائهما، ولكن ما لا تعرفه انه أيضاً يُعالج من سرطان في مراحله الأخيرة، وليس أخوه كما ادّعى، ضمّها إليه أكثر، وحضن الليل احتضار حبّهما حتى الفجر، وحين أفلتت يدها منه، كانت تعلم أنه اللقاء الأخير به، ولكنّها شعرت لأول مرّة في حياتها أنها قد ارتوت، ارتوت بعد ظمأ شديد، من قطرة ماء.

٦٢

المحطة

حين رآها من بعيد وهي تأخذ مكانها وقوفاً بين المنتظرين على محطة الباص، لم يكن يتوقع أن هناك بشراً بهذا الجمال. وتسوقه الأقدار لينتظر الحافلة ويتسابق مع من يتسابقون للوصول إلى أحد بابيها الضيّقين، ليقفز درجات السلم القليلة التي تفضي إلى داخل الحافلة بلياقة ومرونة يفتقر إليهما الإنسان في الظروف العادية، ولكنه يكتشفها في نفسه بمجرد تعرضه إلى احتمال فقد الحافلة والانتظار حتى موعد الحافلة التالية.

نظر إليها مشدوهاً بهذا الجمال الذي كثيراً ما وصف ما هو أقلّ منه بدرجات في قصصه القصيرة التي يكتبها لنفسه، ولم تُنشر له منها قصة واحدة، ولكنّه لم يكن حزيناً لذلك، لأنه كان يعتبر بطلات قصصه الجميلات، جمالاً يقارب الحوريات وعرائس البحر، أنهُنّ نساؤه اللواتي لا يسمح لأحد أن يعرف أوصافهن وملامحهن كما رسمها على الورق، أما هذه التي تقف أمامه فلم يكتب قلمه عنها أي وصف يقترب لو اقتراباً من مستوى جمالها، وجد نفسه يقف مبهوراً لاهث الأنفاس إلى جوارها تماماً إلى درجة أن اشتمّ رائحة شعرها السنبلي الذهبي الطويل المتطاير، والذي يصافح صفحة وجهها بودٍ وزهو، كانت رائحتها أنثوية لا تقارن بما اعتاد أنفه أن يشم، استنشق رائحتها وعبّ منها في صدره وكأنه غريق يجود بآخر أنفاسه بين أمواج تجذبه نحو موت محقّق. حين شعر أن

رئتيه قد امتلأتا بهذه الرائحة، عاود التنفس ببطء وهو يحرص ألا تفلت الرائحة وتتسلل مع زفيره مرة أخرى، ولكن الهواء تضامن معه، فقد حمل إلى أنفه نسمات أخرى معبقة بعطرها الممتزج برائحة صابون فاخر، فأخذ يستنشق منتشياً تارةً وسابحاً بأفكاره تارة أخرى.

كان يحمل بيده اليمني كيساً بلاستيكياً به عدد من أزواج الأحذية الصغيرة لأطفاله كما طلبت منه زوجته، وهي تودعه في الصباح بنفس العبارات التي تُسمعه إياها منذ سنوات: لا تنس كذا، وتذكّر شراء كذا، وإياك أن يخدعك البائعون ويبتزوا أموالك التي نحن بحاجة إليها..

قبل ذهابه إلى عمله، وكانت في نفس الوقت منشغلةً بتسريح شعر ابنتها الصغيرة، والطفلة تبكي وتنظر إليه مستنجدة، ولكنّه ولّى هارباً لأنه يعرف أن لا طاقة له بالدخول مع هذه المرأة في جدال عقيم.

هذه المرأة هي ابنة عمه، أصرّ والده على زواجه بها وهو ابن ثمانية عشر عاماً، وهي كانت تصغره بعامين، وذلك لعدّة أسبابٍ ساقها الأب أمامه وهو يستذكر دروسه استعداداً لامتحانات التوجيهي، ومنها أنّها ابنه عمه اليتيمة والوحيدة، وأنه الأحقّ بها من الغرباء، والزواج عصمة له من الحياة المليئة بالمُغريات، وأنه ووالده بحاجة لامرأة تعتنى بهما بعد وفاة أمه، لم يجد اعتراضاً يسوقه أمام ما ساقه الأب من أسباب، وفي النهاية، وفي غضون أيام قليلة، كان قد تزوج من هذه الفتاة. لا يُنكر أنها كانت جميلة وقدّها ممشوق، وبدأ يكتشف

رجولته الغضّة على جسدها الغضّ، ولكن بعد عدة شهور وبانتفاخ بطنها بأوّل جنين يحمل علامة رجولته المكتملة، والتي كان والده يشكّك فيها نظراً لصغر سنه، أصبحت ممارسة رجولته فوق جسدها الذي تكوّر تدريجياً أمراً صعب المنال، فهي دائمة التأوه والشكوى، من الحمل تارة ومن البيت الذي ألقى مسؤوليته هو ووالده عليها، فأصبحت ربة البيت الأولى، وسرعان ما بدأت تمد نفوذها وتفرض سطوتها على القاطنين وعلى الممتلكات، حتى الأب العجوز فقد هيبته ونفوذه أمام حاجته لها لترعاه وتقوم على شؤونه، وقد راقت لها اللعبة كثيراً، فأصبحت قوية متمرّدة، سليطة اللسان، خاصة بعد أن قذفت من رحمها بتوأم من الذكور إلى باحة البيت الخالية، فأصبحت بذلك هي السلطة العليا بلا منازع، وقد أخبرها بعد وضعها التوأم عن حتمية وقف سيل الأطفال من رحمها فبكت وولولت واستجارت بأبيه، واتّهمته بأنه يخطط للزواج بأخرى من فتيات المدينة، فصمت صاغراً، أما بعد وفود الأطفال الآخرين فلم يكن يجرؤ على تذكيرها بوقف هذا السيل الذي يراها مستمتعة بزيادة عدده.

واصل أفكاره السابحة إلى القرية ... فحين يعود من جامعته في المساء إلى القرية بعد غياب طول النهار في المدينة المجاورة، يحاول أن يسقط على جسدها كل ما رآه من مشتهيات وإغراءات في الحرم الجامعي، أو في شوارع المدينة الزاخرة بأنواع من النساء والفتيات، واللواتي يشعلن النار في جسده رغم عمره الذي بالكاد يقترب من العشرين ولكنه خبر النساء

وبالتالي أصبح يعرف الفرق بين تلك المرأة وتلك، وبين كل هؤلاء والمرأة التي تركها في البيت والتي يتدلّى ثدياها طوال النهار وهي تلقمهما بالتناوب للتوأمين الصغيرين، وسرعان ما انتفخت بطنها بعد لقاء واحد معها حاول فيه أن يسقط على جسدها كل مشاهدات الفترة الماضية التي اعتبرها نوعاً من العقاب القاسي منها بعد أن انشغلت بالتوأم الصغير وهو يذهب كل يوم إلى جامعته ويعود وعيناه ممتلئتان بما شاهد من صور وعروض، وجسده يتّقد شهوةً ورغبة، وأصبح انتفاخ بطنها كلّ عام عرضاً مستمراً ومكرراً بعد لقاء واحد يجمعه بها على وقع "مواء" الصغار الذين تصر على نومهم في غرفة واحدة معهما، ويكتظ بهم السرير وهناك من يفترش أرض الغرفة عند موضع قدميه تماماً، إذا ما حاول النزول بقدميه إلى الأرض.

وتحولت حياته بعد تخرجه من الجامعة وحصوله على وظيفة مدرس في المدينة أيضاً، إلى مشاهد مكررة من البطن المنفوخة والثدي المدلى والشعر المنكوش والصغار الذين يطلقون المواء رضّعاً، ويتعاركون بمجرد أن تدب أقدامهم على الأرض، واللسان السليط الذي يكيل له الاتهامات بالتقصير واللامبالاة بهذا الجيش الذي يخاف أن يحصيه بينه وبين نفسه، وبعد وفاة والده أصبح يشعر بسطوتها أكثر، وأنه وحيد لا سند له ولا معين، حتى لو كان السند قائماً خيزرانياً في كرسي صاحبة الأمر والنهي زوجته.

لا ينسى حين لفّت لأطفالها شطائر المدرسة بأوراقه التي كتب عليها عدة قصص من قصصه، شعر كأنها فتكت ببطلاته ومزّقت شعورهن المسدلة بأظافرها، وأنشبت أسنانها الصفراء، والتي لا تفكّر بدعكها باختراع اسمه فرشاة الأسنان، بأعناقهن المرمرية، انتابته رغبة شديدة بالبكاء على نسائه اللواتي اكتشفت زوجته مكانهن وعلاقته البريئة بهنّ، ولكنه أحجم عن مجرد تأنيبها لأنه يعرف لهجتها المتهكمة الساخرة التي تواجهه بها حين تراه منزوياً في أمسية ما على غفلة منها، ويكتب وهو يخفي الأوراق والقلم بين ذراعيه وصدره ووجهه وكأنه يضاجع امرأة في بهو كنيسة فتضبطه بالجرم المشهود، ولا يبقى أمامها سوى أن تقدمه لمحكمة من محاكم التفتيش التي كانت تعدم الساحرات في القرون الغابرة، أحياناً يشعر نحوها بالرثاء، فهي لم تغادر القرية في حياتها، ولا تعرف من الحياة أكثر من بيتها وأطفالها، والعناية بهم، فكيف ستعرف كيف تودّعه في الصباح بقبلةٍ أو تستقبله في المساء بوردة، أو تجلس قبالته، ويقرأ لها فقرة من كتاباته، ولكن نفسه تعاود طفحاً، حقداً عليها لأنها حولت صورته إلى هذه الصورة القاتمة التي لا يرى منها فكاكاً..

نظر إلى ساعته فأدرك أن الحافلة قد تأخرت وأن أفكاره قد أخذته بعيداً في حين أن رائحة الفتاة لازالت تدغدغ حواسّه، فقرّر أن يتجرّأ لأول مرّة في حياته ويحادثها، ولكنه ألقى بالفكرة قليلاً إلى ما وراء أذنه حتى تصل الحافلة، فسوف يسرع ليختار كرسياً لها إلى جواره معتمداً على خبرته في

الصعود إلى الحافلات، وإشفاقاً منه على هذا الجمال من عناء البحث عن كرسي، في حافلةٍ تعود إلى القرية في نهاية النهار، ولكنه عاد فحدّث نفسه أن هناك الكثيرين ممن جذبهم جمالها وسوف يقومون بما ينوي فعله. اقترب منها أكثر ونظر إلى صدرها الصغير الذي تُحكم تقييده تحت بلوزة ورديّة، وتذكّر ثديي زوجته اللذين لم يعد يجد فارقاً بينهما وبين ثديي بقرة يراها في الحقل المجاور لبيتهم، وهو يتمنّى لو كانت تقيّدهما بحمّالة صدر، مثل تلك التي يرى الكثير منها في واجهات المحلات، وشعر بلذّة خيالية وهو يتخيّل نفسه يفكّ رباطهما الصغير من الخلف، فيتدلّيان أمامه صغيرين، خجولين، وقورين، وينحني أمامهما إجلالاً وإكباراً، ويخجل من لمس طهارتهما الملائكية، فيعيدهما إلى قيدهما الأول، ويقدم لهما اعتذاراً بتربيتةٍ خفيفةٍ من أطراف أصابعه، تأمّلها أكثر، فرأى عينيها جميلتين بلونٍ فيروزيٍ رائع ولكنهما يحملان تعبيراً خاوياً وكأنهما لا يمتّان بصلة لصاحبة هذا الجسد، بطوله الفارع والقامة الرشيقة، وشعر أن نظراتها الخاوية هي نوع من الغرور والتعالي، وقرّر أن ينتحل لهذا الجمال العُذر، إن تعالى وتكبّر، وقرّر أيضاً ألا يدخلها في مقارنات فاشلة تُقلّل من شأنها مع زوجته التي تنتظر عودته بالأحذية للصغار.

ضرب جبهته بباطن كفّه حين تذكّر كيس الأحذية والذي يحمله بيده اليمنى، لو لمحته بيده ستعرف أنه أب لحفنة

أطفال بل لجيش، وأسرع يخفيه خلف ظهره ويدعو الله في سرّه ألا تكون قد لمحته بيده.

وجدها تهزّ قدمها قلقة، إذن هي مثله تشعر بتأخّر الحافلة، سوف يجلس إلى جوارها، ولكن أثناء صعودهما سوياً سوف يحتك متعمداً بمؤخّرتها، طفت إلى مخيلته دون قصد مؤخرة زوجته التي تحشرها في ثوب مثل الكيس الضخم، والتي تمتلئ ببقع الزيت ومخاط الصغار وبقايا الطعام الذي يمسحونه بثوبها من الخلف أثناء التصاقهم بها وهرولتهم خلفها من مكان إلى مكان في البيت الواسع .. ترى كيف سيكون شعوره وهو يحتكّ بها وحين يقترب وجهه من وجهها وتلفح أنفاسها أنفاسه، وهما يدلفان الحافلة في لحظة واحدة، ويطلقان تنهيدةً على أوّل درجة تفضي إلى داخلها علامة على نجاحهما في تجاوز أزمة الاختناق المرورية في الصعود .. هيأ نفسه لمشاعر لم يخبرها ولم يكتب عنها في قصصه، ماذا لو لمحت الأحذية؟ سيخبرها أنها لأخوته الصغار، لأن من هم في سنه لم يتزوجوا بعد، تمنّى لو كان معه كراسته التي كتب بها آخر قصة له، ولم تصل لها يدا زوجته، لكان عرضها عليها وحدّثها عن مواهبه، لو رفضت الحديث معه، وأشاحت بوجهها الساحر إلى الناحية الأخرى، كما تقتضي تربية الفتيات المهذبات، لحظتها سيكتفي بالجلوس إلى جوارها، والنظر إلى محاسنها طول الطريق .. إن هذه الحادثة سوف تجعله لا يفكر بالمرأة التي تركها في البيت لأعوام قادمة، هذه الفتاة رائعة ساحرة، والنظر إليها يشعره أنه قد تحوّل إلى قديس أو راهب لا يرغب

بأي امرأة في الكون إلا سواها، فهو مستعد أن يُرجم أو يُجلد أو يُصلب بعد الظفر بها.

لاحت الحافلة من بعيد، واستعدّ لتنفيذ مُخطّطه، ورأى فتاةً أخرى تلوح أيضاً وتقاربها جمالاً وتقترب وتقترب، ثم أصبحتا في مواجهة بعض. حين صكّ سمعه توقف الحافلة لم تكن حافلته المنتظرة التي ستعود به إلى قريته، ولكن حافلة بعلامة مميزة وشعار مميّز على جانبها، استعدت الفتاتان للصعود إليها وهما تتبادلان الحديث بالإشارات....

أصبحت الفتاتان داخلها في لحظة، فلا زحام هناك، ولم يتقدّم أحد من الواقفين سواهما للركوب فيها، وسارت الحافلة وهو يشيّعها بنظره، ويُحكم يده اليمنى على الكيس البلاستيكي الضخم الذي يحوي أحذية الأطفال الصغار...

٧٠

الباب

لأول مرة تدخل مثل هذه المكان ، حين دلفت من الباب المتحرك الذي يفتح في كلا الاتجاهين ، شعرت أنها تدلف إلى عالم آخر لوهلة ثم تحرك ودار بها الباب فوجدت نفسها في الشارع ثانية حيث الحر الشديد والغبار وحركة الناس التي لا تنقطع، وحيث يمتد على مرمى من بصرها الشارع الطويل المؤدي الى المخيم حيث يقع بيتها، أعادت المحاولة ثانية ودلفت هذه المرة الى الداخل بسرعة حيث دفعت الباب بكتفها ومدت قدمها الى أقصى حد لتمنع ارتداد جسدها للخلف ولكنها تعثرت وسمعت ضحكة خافته تنطلق من فم ماو سرعان ما تلاشت هذه الضحكة وكأن هناك من انتهرها أو أن قوانين العمل في هذا المكان تمنع الضحك! حين أصبحت في الداخل شعرت ببرودة تلف جسدها وتأكدت وهي تجيل ناظرها فيما حولها أنها حقا في عالم لا ينتمي الى عالمها في الخارج ، ، ، عالم يفصله بين عالمها مجرد باب ، ، ربما كان هذا بابا سحريا لأنه يدخلها ويخرجها في لحظة واحدة، تذكرت حكاية قديمة كانت ترويها عجوزا في المخيم لها ولأخوتها وهم صغار ، كانت تروي عن عالم أرضي سفلي يسكنه الجان والعفاريت وأنهم يسحبون اليه من يختارون من عالم الانس ولكن من يذهب اليه لا يعود اطلاقا، كانت حين تسمع هذا الحديث من العجوز التي يملأ محيط فمها وشما أخضرا قديما وتبرز من فمها أسنانا فضية وذهبية ، كانت تسرح وهي تتخيل نفسها

الإنسية المختارة التي ستنزل الى هذا العالم حيث الكنوز والمجوهرات واللآليء وغيرها مما يسيل لعاب البشر ولكنه لا يعني شيئا لقاطني العالم السفلي، كثيرا أيضا ما تخيلت أن هناك بابا يؤدي الى هذا العالم ، وتسرح بخيالها وتحاول البحث عن هذا الباب ولكن الأيام مضت بها متتابعة وكلما فتحت بابا وجدته لا يفضى الا الي نفس العالم الذي تعيشه، ، الفقر والعازة والحرمان، ، حتى حين توفيت تلك العجوز شعرت بالنقمة عليها لأنها كانت تعتقد أنها تعرف طريق الوصول الى العالم السفلي حيث الكنوز ولكنها لم تخبر أحدا بالطريقة ولا بالباب الذي يؤدي اليه ولكن ربما كانت العجوز كانت خائفة من انتقام أهل هذا العالم لو هي أفشت سرهم، ماذا كان يضيرها لو افشت السر وهي تحتضر لأحد أقاربها الفقراء..؟؟ تساءلت بينها وبين نفسها وامتلأت بالحقد على العجوز أكثر ولكن حين مرت بها الأيام اكتشفت أنها قضت عمرها وهي تبحث عن خرافة أو كذبة أو وسيلة تقنع بها نفسها أن هناك غدا أفضل قد تحمله صدفة او يأتي به مزلاج باب ، اغراقها في هذا الحلم أو هذا الأمل هو الذي جعلها تحتمل كل ما مر بها في حياتها، فقدها لأمها وهي لا زالت في السادسة من عمرها ثم زواج والدها بجارتهم التي كانت تعتبرها أمها أعز صاحباتها والتي ماتت أمها بين ذراعيها ولسانها يلهج بالوصية والرجاء لكي تعنى بطفلتها الوحيدة، العذاب والقهر الذي نالته على يد زوجة أبيها، صوت ضحكاتها التي كانت تملأ أذنيها وهي تداعب الأب الذي

نسي في غمرة انشغاله بشهواته أن له طفلة تحتاج للعطف والحنان ، ثم اصرار زوجة الأب على زواجها من شقيقها الذي يكبرها بعشرين عاما وهي لم تبلغ عامها الخامس عشر بعد ، ، لا زالت تذكر وجه شقيق زوجة ابيها الذي أشرق بحمرة صنعتها بهجة وتصورته كأسد من الذين سمعتهم بالحكايا أيضا والذي يزأر بانتصار ونشوة حين يقع على فريسة ضعيفة لم يبذل الكثير من الجهد في اصطيادها ، أشرق وجهه في ذلك اليوم حين أبلغته شقيقته أنها قد بلغت مبلغ النساء ، كانت هي تنزوي في ركن بعيد من باحة البيت الضيقة ولكنها رأت نظرته تصل اليها وكأنه سيلتهمها فلملمت نفسها وتكورت والتصقت بالحائط أكثر وتمنت لحظتها أيضا في سذاجة الطفلة لو انشق الحائط خلفها وفتح الباب الى العالم السفلي الذي حلمت به ولكن بابا اخر فتح لها هو باب بيت عريسها الذي تزوجها خلال أيام من تلك النظرة التي أودعها فيها اشراقة وجه الأسد ، ، وتزوجته وعرفت معنى العذاب أكثر وأن ما كانت تعانيه من زوجة الأب لم يكن الا لعبا ولهوا مقارنة بما أذاقها اياه هذا الزوج... كان يحبسها في البيت ويرفض خروجها ويوصد الباب ويتركها بالداخل وحيدة وتحلم في كل مساء حين يعود أن يفتح الباب وتجد امامها أحد سكان العالم السفلي ولكن ظل زوجها يتراءى لها ويملأ الفراغ حولها فتبكي في حسرة ،وتتخيل بابا من السعادة والمتعة والنشوة يفتح من وراء ظهر زوجها حين يعتليها في ظلمة الليل وينهش جسدها بضراوة أسد ، وأصبحت تحاول أن تتناسى هذا الحلم خاصة حين

أصبحت أما لحفنة من الأطفال قذفت بهم من رحمها في سنوات متتالية ، بعد انجابها طفلها الخامس بدأ زوجها يشكو من مرض ما ، لم تهتم كثيرا لتعرف طبيعة مرضه ولكن كل الذي عرفته أنه لن يقف ثانية بطوله الفارع لكي يملأ فراغ باب الغرفة ، ولن يستطيع أن يفرض على جسدها الطاعة والخنوع ، وقد كان ما توقعت ، لقد أصبح زوجها ضعيفا متهالكا لم يقاوم كثيرا حين أخبرته انها ستتوجه إلى وزارة الشئون الاجتماعية لكي تطلب عونا بعد أن أصبحوا بلا مصدر دخل ، في البداية حاول أن يتمنع بل حاول أن يقف ليسد فراغ الباب ولكنه لم يلبث أن انهار عاجزا ، ولم يعلق على خروجها لأول مرة من باب البيت إلى الشارع.

مبلغا صغيرا خصصته الوزارة لإعانتهم ، وقد كان يتعين عليها أن تتوجه كل أول شهر إلى البنك لتصرف حوالة صغيرة ، ولذا دلفت من هذا الباب لأول مرة في حياتها.

كانت لاتزال تحمل مسحات من جمال فهي لم تتم عامها الثلاثين ولكن الفقر والانجاب المتكرر وملابسها الرثة جعلوها تبدو أكبر من عمرها بكثير ، رائحة عطر غامض تنبعث من مكان ما ، اعتقدت أنه عطر ولكنه في الواقع رائحة مادة تنظيف من ماركة أجنبية ، رأت الموظفات الأنيقات خلف المكاتب والحواسيب والصرافات ، سرح خيالها بهن وهي تسأل نفسها : هل يستيقظن من النوم كل صباح وعيونهن ملتصقة من بقايا قذاء كما يحدث معها ، هل أظفارهن متكسرة وأصابعهن مشققة مثلها؟ هل يحتفظن على حافة الشباك

بزجاجة دواء واحدة حصلن عليها من العيادة المجانية ويتناوبن استخدامها لأي مرض يشكو منهن أي طفل من أطفالهن لأن لا دواء غيره لديهن؟؟ الكثير من الأسئلة جالت في رأسها ولكن حين رأت لوحة مضيئة تعلن عن جوائز البنك التي يقدمها للمدخرين فيه ، سرح خيالها في ناحية أخرى وهي تتخيل نفسها قد فازت بجائزة ضخمة تقودها إلى العالم السفلي الذي طالما حلمت به..أحلامها وخيالاتها تتوقف حين تناديها موظفة أن تنتظم في طابور طويل أمامها ، وحين مدت يدها المشققة إلى موظفة أخرى أجادت تخطيط حاجبيها وشفتيها وكأن لا عمل لها سوى تخطيطهم، شعرت أنها تريد أن تخرج من هذا المكان بأقصى سرعة ، وبالفعل حين أصبحت الأوراق المالية القليلة في يدها أسرعت للخروج من الباب الذي دلفت منه ، ولكنها هذه المرة خرجت منه بسرعة ، ولم تحاول مرة ثانية للخروج ولم تتعثر أبدا لم تتعثر وهي تأخذ طريقها إلى الشارع المؤدي إلى المخيم.

٧٥

المُتّهمة

يتحلقون حولها ويشيرون جميعاً إليها بإصبع واحد، أنت متهمة بقتل طفلك الرضيع.. إهمالك تسبب في وفاته.. أين كنت حين اختنق بقيئه ولم يجد من يديره إلى أحد جانبيه أو من يساعده على التجشؤ بعد فراغه من الرضاعة؟ لماذا لم ترضعيه من صدرك كما يقتضي الشرع وأنت تتمتعين بصحة جيدة؟؟ ألهذه الدرجة بلغ بك الحرص على مظهرك وقوامك حتى تعهدي به إلى جارتك العجوز وتعطيه الرضاعة الصناعية؟؟

الكثير من ثرثرة الجيران والأسئلة التي تحمل في ثناياها أجوبة المتسائلين، ولا إجابة لديها سوى الصمت، ثم البكاء وعبارة واحدة فقط قالتها، بعد أن سرحت بعيداً عن الإصبع الموجه إليها واجتازته كما تجتاز طريق رصاصة موجهة إلى صدرها وهي تعرف أنها ستتلقى رصاصة أخرى قاتلة.. رأت من بعيد عينيه تلمعان وتشيران لها ألا تعبأ بالاتهام فهو يعرف أنها ليست مذنبة، تذكرت أنها في الصباح الباكر انتزعت صدرها من فمه الصغير ورأت لسانه الأحمر الدقيق وهو يلملم بقايا الحليب من جانبي فمه، وشعرت بالأسى نحوه ولكنها يجب أن تهرول لتلحق بالحافلة التي ستقلها إلى مقر عملها، وتركته لجارتها وهي توصيها أن تسخن له قنينة الرضاعة الصناعية والتي تحوي ماء ونشاء وسكر معقودين على النار حتى أصبح سائلاً غليظ القوام يمكن أن يبتلعه الطفل ويشعر بالشبع لمدة طويلة إضافة إلى إصابته بالإمساك لفترة فلا تحتاج الجارة

العجوز إلى تغيير كافولته عدة مرات في غيابها، الحافلة لن تنتظر لهفتها وألمها على الصغير الذي لم يكمل وجبته، استقلته إلى حيث تعمل في روضة للأطفال، مديرة الروضة رفضت بإصرار أن تصطحب طفلها وتضعه على أحد الأسرة الفارغة والتي تفتقر للنظافة وعللت رفضها بأنها ستنشغل به وبرعايته عن الأطفال الآخرين الذين يعهد بهم آباءهم وأمهاتهم إلى دار الحضانة في حين يذهبون إلى أعمالهم ويدفعون مقابل ذلك مبالغ مالية لا تستطيع هي أن تدفع كل راتبها كأجرة شهر واحد لو فكرت أن تضم طفلها إلى هؤلاء الأطفال الذين ترعاهم لساعات وترى آثار النعمة عليهم من ملابسهم وكوافيلهم الجاهزة وهي التي تستخدم لطفلها خرقاً بالية وقطعة سميكة من النايلون أعطتها لها جارتها بعد أن قصتها لها على شكل مثلث لكي تلتف بين ساقي الطفل ومؤخرته، وترى ثراء ذوي هؤلاء الأطفال في نوعية الحليب الذي تعده لهم في قنيناتهم، وتتنهد بحسرة وهي تتذكر الوجبة التي تتركها للتحايل على معدة طفلها الصغير، ولكنها لا تلبث أن تضم الرضيع تلو الرضيع إلى صدرها وهي تدعو الله أن يحفظهم ويحفظ لها طفلها كثيراً ما دعت عليه وعلى الظروف ولكن قلبها يتوسل للسماء ألا تسمع دعاءها، ولكنها تشعر أنها سوف تموت، الضغوط في حياتها كثيرة وفوقها ذلك الألم الذي يجتاح صدرها كلما احتبس فيه الحليب وهي بعيدة عن طفلها فتشعر بالقهر وتتمنى أي فمّ صغير تلقمه هذا السائل المتحجّر حتى ترتاح من وقع الألم، تشعر أنها تنسحق، لكن ليس نفس

الشعور بالانسحاق الذي شعرت به أول مرة حين التقت به وهو يتفحصها كسكرتيرة في مكتب التأمين الذي يملكه، وفودها من قريتها بحثاً عن عمل بعد التوجيهي جعل وقوفها أمامه وقوف الفأر الساذج أمام قطعة جبن جافة ملتفة حول فخ ضخم، وهو عرف كيف يصطادها ويقود براءتها ويفضها على سرير معدني في غرفة صغيرة بالمكتب يدعي أنها للراحة من العمل، كانت لقاءاتها الأولى معه ممتعة وهو يفتح أمام عينيها عالماً من النشوة تجعل جسدها يتهشم بنعومة بين يدي رجولته وحين استبان حملها بدأ يختلق أساليب للهرب منها، بكت وتوسلت ولأنه من ذلك النوع من الرجال الذين يبصقون على الأرض ويدعون التهذيب فيمسح بصاقه بكعب حذائه فقد قال لها: لن أستطيع سوى منحك ورقة زواج، وقد وافقت بلهفة وجعلته يتقدم لأمها العجوز التي رأته لمرة واحدة ثم اختفى، ولم تسأل الأم كثيراً عن هذا الزوج غريب الأطوار لأنها ببساطة توفيت بهدوء ذات مساء.

الحب لا ينقسم على عدد من الأطفال، الحب واحد وهي توهمت ذات يوم أنها أحبت من ألقى ببصاقه في رحمها وهرب، والآن هي تحب طفلها وحده ويشتد حبها له وهي تمسح قطرات الحليب التي سالت من صدرها وأصبت تصل إلى الأرض قطرة تلو قطرة، رأت وجهه الصغير الذي يجيد مداعبتها ومحاورتها، لو استطاعت العودة الآن، ولكنها سوف تنهي عملها في دار الحضانة لتتوجه إلى عيادة طبيب حيث تقوم بتنظيفها وكتابة أسماء المرضى وتنظيم دخولهم إلى حجرة الكشف حتى ساعة

متأخرة من المساء، وتعود إلى غرفتها الصغيرة التي استأجرتها في بيت امرأة عجوز كثيرة الأسئلة عن سر رحيلها عن قريتها وعيشها وحيدة في هذه المدينة.

لم تستطع أن تقدم لها إجابات إلا أنها في داخلها تعرف إجابة واحدة، فربما عثرت عليه وفكر فيها وفي طفله ولكنها تسخر بداخلها من خيالاتها وأحلامها فيكفيها منه ورقة زواج تحفظ بها ماء وجهها أمام ألسن وعيون لا تكف عن البحث عن أجوبة.

لم تر إنساناً يلعق بصاقه إلا البلهاء وهو ليس أبله وإلا لما أوقعها بسهولة وجعلها تدوخ بين يديه وكأنها تركب أرجوحة لأول مرة، في الليل تعطيه صدرها وتظل سارحة في ظلمة غرفتها، وتخاطبه وتحاوره كرجل كبير، الآن تشعر بأنفاسها تنطبق وكأنها أيدٍ حديدية تشعر أن مكروهاً ما أصاب طفلها، رفرفت في قلبها لوعة وطلبت من الطبيب أن تغادر، وافق بعد إلحاح حين رأى تلك النظرات المكسورة في عينيها، كان الغروب يقطر من حولها مرارة وحزناً وهي تقترب من مكان سكنها بسرعة وتقبض على حقيبتها التي تحتفظ بها بالورقة التي ألقى بها إليها واختفى وكأنها تقول لمن حولها: لست آثمة، ثيابه البيضاء التي تلبسه إياها وهي تتخيل الملائكة تحتضنه في شهوره الأولى تتراءى من بعيد أمام عينيها الغائمتين في التعب واللهفة، حين وصلت إلى مدخل البيت كان الغروب قد وصل أيضاً إلى مدخل البيت المعتم وضربات قلبها تتعالى حتى دلفت إلى باب شقتها العجوز لم تسمع صوت مناغاته ولا

بكائه كما اعتادت ولكنها وجدت جمهرة قليلة من الجارات الملتفحات بأروابهن وحاسرات الرؤوس وبعضهن يضربن كفاً بكف، والأخريات يمصمص الشفاه وفي عيون الجميع اتهام واحد، وصلت إلى سريره وهي تشق طريقها نحوه غير مبالية بهذا الجمع الذي يلتف حول الجارة العجوز بهمهمات، وكان يرقد وحول فمه بقايا حليب جاف. وضعت كفها بالقرب من أنفه، لم تشعر بأنفاسه الدافئة والمنتظمة التي كانت تستدل بها على نومه، كانت جارتها تتمتم: لم أعهد تربية الأطفال، وكنت أحسبه نائماً، ويبدو أنه قد غص بقيئه واختنق.. والنسوة من حولها بدأن بالهمهمة العالية: كيف تتركين طفلك حتى الساعة، الرضيع يجب أن ينام على أحد جانبيه لا على ظهره، لم تعد تسمع ما يرددن، الطفل الذي لن يعود، الرجل الذي بصق في رحمها واختفى، الحليب المحتبس في صدرها، أجرة الغرفة المتراكمة، مصاريفها ومصاريف الطفل.. صرخت بهم: اتهموني كما تريدون.. فقط ساعدوني، أعلموني كيف أتخلص من هذا الألم في صدري؟؟ أعطوني طفلاً أرضعه لأرتاح وبعد ذلك.... سأقتله.

٨٠

فراشة تحترق

ليس ذنبي أني قد جئت لهذه الحياة لأجد نفسي في هذا الوضع، أمي ليست في البيت، هذه الحقيقة والمصيبة الوحيدة في حياتي، وبعد ذلك كل حياتي أكاذيب وأوهام، لا أدري متى فتحت عيني على الحياة ولم أجدها، ولكني أدركت مبكرا جدا أني حين أتألم لا أجدها جانبي، وحين أعود من المدرسة لا يستقبلني صدرها، وحين أنجح لا أجد ذراعيها يتلقفاني .

افتقدت وجود أمي وعرفت أ نها مطلقة، من همس الجارات البدينات، ومن بناتهن الصغيرات اللواتي يلعبن معي في الحارة ، وحين يضربنني يهرعن ليحتمين بأمهاتهن، وحين أضربهن يبكين بمبالغة ويستدعين أذيال أثواب أمهاتهن المتسخة والمبللة بالصابون والماء حتى مدخل الحارة الضيق حيث نجتمع ونلعب، فيوقعن بي عقابا أقسى مما نال بنت احداهن مني، وقررت منذ نلت آخر عقاب على ذنب بسيط ارتكبته أن أكون انسانة أخرى.

إنسانة بلا أم، ولكن يجب أن أكون قوية، لن أسمح لأحدا أن يضربني أو يسخر مني، لن أرى تلك الصورة التي أراها في عيون من حولي، بأني انسانة ناقصة، إن وجود الأم في حياة الانسان أشبه بدرع السلحفاة، فمهما كانت السلحفاة ضعيفة وبطيئة الحركة، لكن أحدا لا يستطيع النيل منها وتتجول بحريتها وتمارس حياتها لأن درعها فوق ظهرها، وكنت أشعر

أن أمي هي درعي الذي كنت بحاجة له أينما سرت أو توجهت، حتى لو نمت كنت بحاجة لها، فلا يمكن أن تخلع السلحفاة درعها عند النوم وهكذا الانسان لا يمكن أن يخلع أمه، أو أن يحتاجها في أوقات، ويدعها ويستغني عنها في أوقات أخرى، الأم اما أن تكون أو لا تكون.

ولم تكن لي أم، ولذا كنت انسانة أخرى، ليست ناقصة ، وليست كاملة ،أمي مطلقة، فهي على قيد الحياة، ولكن أسبابا أجهلها جعلتها بعيدة عني لم تمسح دمعي، ولم تجفف سيلان أنفي في شتاء بارد، ولم تصفف لي شعري في طريقي للمدرسة، ولم ولم ولم، كم هي الأدوار التي تمنيت أن تكونها أمي في حياتي ولم تكن، لو كانت أمي ليست على قيد الحياة، لسامحت الجميع، أبي الذي طلق أمي، وأمي التي تنازلت عن حقها بي وحقي بها، وكل الأسباب التي أبعدتنا عن بعضنا، ولكنها تعيش هناك في بيت رجل آخر غير الرجل الذي ألقى بي في رحمها ثم ألقى بها بعد أن انتزعني من صدرها إلى زوجة أب لا تعرف من الحياة إلا أن تكون زوجة لأبي رغم أن أبي اختارها لتكون أما بديلة لي ولكنها لم تحاول أن تفعل وقامت بدور واحد في البيت مع تجاهلها التام لوجودي.

وقررت أن أتجاهل وجودها أنا أيضا ، ولكني لم أغفر لها بداخلي أنها احتلت مكان أمي في البيت وعند والدي، وأمام الناس.

يجب أن يكون لي درع، ويجب أن ألفت الأنظار أينما حللت وحططت، يجب أن أكون نجمة في السماء وليس بعوضة تدوي

في الفضاء ..هكذا كنت أحدث نفسي وأنا أركل من قدم إلى قدم، من العمة إلى الجارة ،ومن الجارة إلى زوجة الأب، وبدأت الطريق الذي لا أعرف له نهاية، لا أعرف متى بدأته ولكن أذكر أني في عز الشتاء كنت أصر على ارتداء الملابس الصيفية وألعب بالماء البارد وأحتسي المشروبات المثلجة ، وتستغرب جاراتي الصغيرات وتتحدث زميلاتي في المدرسة عن مقدرتي على تحمل البرد الشديد، وينظرن لي بانبهار واعجاب يجعلني أحتمل البرد وارتفاع درجة حرارتي من التهاب حلقي ، أحتمل في صمت عجيب وأسطوري، لا أشكو ولا اتألم ولا أتذمر، وأصبحت في مدرستي الابتدائية التلميذة الخارقة خاصة عندما عثرت على عدة دروع لي، فادعيت أمام زميلاتي الصغيرات أن مديرة المدرسة خالتي وأن مربية الفصل زوجة خالي، وحتى الآذن العجوز ضممته إلى شجرة عائلتي فقلت أنه شقيق جدي، وهكذا بدأت زميلاتي يتقربن مني ، ويحرصن على رضاي ويشركنني في ألعابهن، ويقتسمن معي شطائرهن، بل ويطلبن مني أن أتوسط لهن في أمر ما لدى المديرة أو مربية الفصل أو أن أتوسط لهن عند الآذن ليسمح لهن باللعب بالقرب من النافورة الصغيرة والتي لا يسمح للتلميذات بالاقتراب منها، ومرت سنوات الدراسة الابتدائية كأسعد ما يكون ولم تكتشف الصغيرات الغبيات أبدا كذبي وتلفيقي ، حتى استخدمت الأسلوب نفسه في المرحلة الاعدادية، وبدأت الطالبات يتقربن مني ويسألن عن خصوصيات المعلمة الفلانية وأخبار المعلمة " العلانية" وأنا أخترع وألفق، وهن يصدقن،

المعلمة فلانه تمت خطبتها قبل أسبوع، وعلانة معها أربعة أطفال وفي خلاف دائم مع زوجها، أما المديرة فهي بخيلة"جلدة" وتدخر فلوسها في بنوك أجنبية، وهكذا والطالبات يسعين ليصبحن صديقاتي، وأنا مندوبتهن في مجلس الطالبات، وأنا عريفة الصف وأنا التي تتقدم بكل مشاكلهن إلى مكتب الناظرة وهكذا.....

حتى وقعت في شر أعمالي، لأن احدى الطالبات شعرت بالغيرة مني ومن مكانتي التي أصبحتها بينهن فقررت النبش خلفي خاصة حين تجاوزت حدود المعقول في ادعاءاتي فأصبحت حين يستشهد بطل من أبطال المقاومة أدعي أنه عمي، وحين يسقط آخر أدعي أنه قد تقدم لخطبة أختي الكبرى، والأدهى والأمر أني ادعيت أن اخوتي الذكور جميعهم أبطال في المقاومة، فأصبحت الطالبات ينظرن لي كبطلة تعيش مع أبطال ، وأحيك لهن الروايات عن مداهمات جيش الاحتلال لبيتنا، وعن عمليات هروب اخوتي ومساعدتي لهم في الخطط العسكرية ضد الاحتلال، حتى أوغلت صدر زميلتي فسألت عني وكان من السهل أن تعرف أكاذيبي وادعاءاتي وخاصة أني بلا درع، بلا أم، ،اصبحت عارية في المدرسة خاصة حين أخبرت الطالبات كل معلمة ادعيت أنها قريبتي، وقررت مربية الفصل عرضي على الاخصائية الاجتماعية في المدرسة، وتغيبت أياما كثيرة عن الدراسة حتى اقتربت الامتحانات فعدت وأنا أشعر نفسي عارية، أراني بعوضة بين أحاديث وهمز ولمز من الجميع، ولكني قاومت حتى تقدمت لآخر مبحث ، وها أنا

أستعد للدخول للمرحلة الثانوية، فسجلت أوراقي في مدرسة بعيدة عن منطقة سكني حتى لا يعرفني أحد، وسوف أصبح الطالبة الوحيدة التي ليس لها زميلات من مراحل سابقة وهذا ما أريده ، لأني أعد العدة لصنع دروع كثيرة لي ولكن هذه المرة بلا ثغور.....

الفهرس

- مدينةُ الصّمت.....ص٥
- أحلامٌ مشروعة..... ..... ص١٢
- فأر وامرأة ورجل ص١٨
- السَّراب ص٢٥
- العتال ص٣١
- الرسالة ص٣٧
- اللقيط ص٤٢
- الضائع ص٤٨
- التميمة ص٥٥
- حب في لحظة احتضار ص٦٠
- المحطة ص٦٥
- الباب ص٧٣
- المُتّهمة ص٧٨
- فراشة تحترق ص٨٣